

إكسير الحياة

الكتاب: إكسير الحياة
المؤلف: جول ليرمينا
رواية
ترجمها عن الفرنسية: مدين حرامي
العنوان الأصلي للكتاب والمؤلف باللغة الفرنسية لأول طبعة
L’élixir de vie
Jules Lermina
(1890)

الناشر:
جدار للثقافة والنشر | مالمو، الإسكندرية
info@jidar.net | www.jidar.net
الطبعة الأولى 2025
الترقيم الدولي:**978-1-326-21509-5**
التصميم الداخلي والغلاف: جدار للحلول المستدامة

L’élixir de vie
Author: Jules Lermina
Novel
Translate it from français to Arabic: Medyan Harami
Publisher: Jidar for Culture & Publishing
.Interior and Cover Design: Jidar for Sustainable Solutions

ISBN: 978-1-326-21509-5

جول ليرمينا

إكسير الحياة

رواية

ترجمة مدين حرامي

مقدمة المترجم

في أروقة الأدب الفرنسي في القرن التاسع عشر، يبرز اسم جول ليرمينا (1839 – 1915)، الصحفي والروائي الغزير الإنتاج، الذي كتب تحت الاسم المستعار وليم كوب، وترك إرثًا متنوعًا من روايات المغامرات المدهشة، والتتمات الجريئة لأعمال كلاسيكية مثل أسرار باريس وكونت مونت كريستو، إلى جانب الروايات البوليسية والقصص المستوحاة من عوالم الغيب والماورائيات.

في روايته الفريدة «إكسير الحياة»، يأخذنا ليرمينا إلى تخوم الرعب النفسي، حيث يختلط الغموض بالخيال العلمي في سردٍ يخطف الأنفاس. تبدأ الحكاية حين يُستدعى طبيب إلى منزل سيدة مذعورة لرؤية طفلة تحتضر فجأة، ليس بفعل جرحٍ أو نزيف، بل بفقدان طاقتها الحيوية نفسها. تموت الطفلة أمام أعين الطبيب وأمها، بينما يفرّ من المكان رجل غامض في الخامسة والسبعين يُدعى السيد فنسان، بملامح قوية لا توحي بعمره. الغرابة تبلغ ذروتها حين يبدأ هذا الرجل في الشيخوخة بسرعة مروّعة، حتى يبدو بعد ساعات كأنه بلغ المئة.

يمر عشرون عامًا قبل أن يلتقي الطبيب مرة أخرى بالسيد فنسان، الذي يعيش الآن في ملجأ للأمراض العقلية، مدعيًا أنه في الخامسة عشرة بعد المئة، مع مظهر لا يشي إطلاقًا بضعف الشيخوخة. هناك يكشف سرّه المروّع: فهو مصاص دماء نفسي، لا يقتات على الدماء، بل على جوهر الحياة ذاته، ممتصًا الطاقة الحيوية للأطفال ليطيل عمره بلا نهاية.

بهذه الرواية، يفتح ليرمينا بابًا على سؤال مخيف: ماذا لو امتلك الإنسان سرّ الخلود، وكان الثمن هو براءة الطفولة وحياتها؟

مقدمة

هل يمكن إطالة حياة الإنسان؟

هذا هو السؤال الذي يُطرح نفسه سرّاً أو علناً، عاجلاً أو آجلاً أمام الذهن الباحث للعالِم، سواء كان خيميائياً أو أستاذاً في كوليج دو فرانس.

زوّدَت المدارس الرّوحانية التي اعتبرت الحياة شيئاً لا مادياً وكاملاً وموجوداً بحدِّ ذاته، الباحثين الجريئين بحججٍ بحثيّةٍ قويّةٍ. ومع ذلك، جاءت الحجج الوضعية الباردة لمدرسة باريس للطبّ كي تدمّر هذه الأحلام الجميلة باسم التجريب البحت، ولم تعد الحياة سوى نتيجةٍ مثاليةٍ إلى حدٍّ ما لأعمالٍ كيميائيةٍ تُنفّذ وفقاً لقوانين محددة في أعماق أنسجة الجسم.

من المثير للاهتمام متابعة هذا الصراع بين الاتجاهين المتعارضين: عندما شعرَ بيشات بقوة الحياة الفعّالة قام بتعريفها: ما يُقاوم الموت؛ تعريفٌ سيئٌ بالنسبة إلى فيلسوفٍ؛ وممتازٌ بالنسبة إلى طبيبٍ يلاحظ، عاجلاً أم آجلاً، القوة العلاجية لهذه القوة الغامضة.

أما كلود برنار[1] فهو يؤكد معرفته لما يمكن توقّعه، وبقلبِ تعريف بيشات الروحاني رأساً على عقب، جعل دراسة الحياة الشغل الشاغل لأبحاثه؛ فتحققت نتائجُ رائعةٌ في الوظائف المحددة لمختلف الأعضاء في طريقه، ولكن يبدو أن الهدف المراد تحقيقه يتراجع باستمرارٍ ويعلن خصم بيشات الشهير هزيمته في أحد أعماله الأخيرة (أقتبس من الذاكرة): «الحياة هي ما يجعل بيضة الدجاجة وبيضة العندليب، المتكوّنتين كيميائياً بالطريقة نفسها، تنتج إحداهما دجاجة والأخرى عندليباً».

ومن دون أن نطيل الحديث عن هذا الموضوع الذي يتطرّق كثيراً إلى "الأسباب الأولى"، لنلاحظ وجود قوةٍ في الإنسان تجدد العناصر المُستهلكة باستمرارٍ وتحافظ على شكلِ الجسم.

أثبتت تجارب فلورانس التي تتضمن تغذية الحيوانات بنبات الفوَّه، أن الخلايا الماديّة الأكثر صلابةً ومقاومةً في جسم الإنسان، هي الخلايا العظميّة التي تحتاج إلى شهرٍ واحدٍ كحدٍّ أقصى لتجدد نفسها بشكلٍ كاملٍ. ونتيجة لذلك، كما يشير مالدان[2]، إن الشخص الذي نراه بعد ثلاثة أو أربعة أشهر لم يعد نفسه كما كان عليه قبل أربعة أشهر من

[1] كلود برنار، *العلم التجريبي*.

[2] مالدان، *المادة والقوة*، دانتو، 1882.

الناحية المادية. لكن ملامحه لا تتغير، ولا الشكل العام للجسم؛ ولذلك يجب أن تكون هناك في الإنسان قوةٌ ما تحافظ على الأشكال المكتسبة بشكلٍ مستقلٍ عن التجديد المستمر للخلايا.

فأين توجد هذه القوة؟

في الإنسان، تُحمل هذه القوة في كل مكان عن طريق عنصرٍ خلويٍّ صغيرٍ، وهو كريّة الدم التي تعيد القوة إلى الأعضاء التي تحتاج إليها، ثم تعمل بعد ذلك على البحث عن مصدرِ إمدادٍ جديدٍ لهذه القوة لتعود مرةً أخرى، ويُطلق عليها الدورة الدموية.

إذا مُنعت كريّة الدم من الوصول إلى أحد الأعضاء، سرعان ما يموت هذا العضو، مما يشير إلى أن كريّة الدم هي بالفعل مقرُّ هذه القوة التي ليست سوى الحياة.

هناك طريقة أولى وبسيطة للغاية لإعادة الحياة إلى شخصٍ يفتقر إليها وهي حقن كميةٍ معيّنةٍ من كريات الدم الحيّة فيه مباشرة. وهذا ما يسمى بـ"نقل الدم" وهو عملية تجديد الشباب لدى بعض الشرقيين الأثرياء.

لكن القوة في الإنسان ليست مقتصرةً فقط على هذا العنصر المتدفّق دائماً؛ إذ وفّرَت الطبيعة في كل مكانٍ تقريباً سلسلةً من الخزانات التي تأتي إليها هذه القوة لتتركز،

وتتوتر، وتتراكم لتتوزع بعد ذلك حسب الحاجة. هذه الخزانات هي العُقد العصبية التي غالباً ما تتوحّد في أنسجةٍ عصبيةٍ وتشكّل معاً النظام الغامض للحياة العضوية المُمثّل بالعصب الودّي الكبير.

توجد حول القلب، وعلى طول العمود الفقري، وفي داخل البطن مراكز احتياطية للقوة الحيوية، وهي مراكز تتحرك تحت تأثيرها جميع الأعضاء التي تعمل من دون تدخّل إرادتنا.

وهناك حقيقةٌ معروفةٌ منذ زمنٍ طويلٍ لدى الهندوس والشرقيين هي أن الحياة، المخزّنة في احتياطي، يمكن أن تخرج من الإنسان وتعمل عن بُعد. وبالتالي فإن من يملك سرّ هذا العمل لن يضطر بعد الآن إلى القيام بعملية سحب الدم التي تنعشه، وهي عمليةٌ تليق بالجهلة في أحسن الأحوال، بل سيتوجّه نحو الاحتياطيات الحيوية، ويجذب إلى نفسه بشكلٍ غير مرئيٍّ القوة التي يفتقر إليها.

لأولئك الذين يشككون في عمل الحياة خارج الإنسان، سأستشهد بالتجارب الدقيقة والصارمة التي أجراها ويليام كروكس،[3] من الجمعية الملكية في لندن، حول القوة

---

[3] ويليام كروكس، *القوة النفسية*.

النفسية وعملها عن بعد، والتي تمَّ التحقق من تأثيرها بواسطة أجهزة تسجيل ميكانيكية.

إذاً ستقولون لي ها نحن مرةً أخرى في مجال المغناطيسية الحيوانية وفي مجال الروحانيّة. سموها ما شئتم؛ لا يهمني. إنها حقائقُ لا جدال فيها، وستعترف بها الأكاديميات في غضون عقودٍ قليلةٍ.

وبما أنني انطلقت في هذا المجال من العلوم الخفيّة، فلماذا لا أذهب إلى نهاية الفرضيات بإخباركم بأصل الحياة البشرية حسب علماء الأمور الخفيّة. لا يخفى عليكم، أليس كذلك، أن الحياة مخزّنة في العُقد العصبيّة للعصب الودّي الكبير. ومن أين تأتي قبل أن تُكثّف هناك؟ من كريّة الدم، إما مباشرة أو عن طريق المخيخ، إذا أردنا أن نصدق الأعمال الرائعة، للأسف غير المعروفة، للدكتور لويس.[4]

كريّة الدم هذه، من أين تستمد القوة التي تحملها باستمرار تحت تأثير أكسدة الهيموغلوبين؟ هل من الهواء الذي يحيط وينشّط جميع الكائنات الحية على الأرض مباشرةً أو عن طريق الذوبان؟ بغض النظر عن التركيب الكيميائي، من أين يأتي الهواء؟

---

[4] الدكتور لويس، *الجهاز العصبي*، باريس، 1885، رقم 8.

يوضح عالم الأمور الخفيّة شاردل[5] أن الغلاف الجوي الأرضي ناتجٌ عن عمل الشمس على كوكبنا؛ الهواء هو شكلٌ من أشكال القوة الشمسيّة. وبالتالي فإن أصل الحياة الأولى هو الشمس التي، من خلال سلسلة من التحولات المتعاقبة، تمكّنت من الاستقرار في عُقدة عصبية في شكلِ حياةٍ بشريةٍ.

عندما أُحرقُ الخشب، هل تعتقدون أنا لا أفعل شيئاً غير استخراج الشمس التي كثّفها هذا الخشب عندما كان النبات حيّاً؛ الأمر نفسه ينطبق على الحياة بجميع أشكالها.

طريقةٌ ثالثةٌ أكثر غموضاً من الطريقتين السابقتين تتمثل في البحث سرّاً عن العناصر الواهبة للحياة الموجودة في الشمس نفسها. لكننا في هذه الحالة نمارس السّحر، وهي كلمة لا تلقى قبولاً في آذانِ العلماء المعاصرين والتي سيعمل الأدباء على توضيحها بشكلٍ أفضل مما يمكننا القيام به بأنفسنا.

توجد اليوم مراكز بحثيّة حقيقية يُدرّس فيها السحر بفروعه جميعها؛ تُعنى المجموعة المستقلة للدراسات الباطنية، ومجلة "المبادرة"[6] بهذه القضايا ويطبّق عددٌ من الباحثين

---

[5] شارديل، *مخطط للطبيعة البشرية*، مجلد 1 رقم 8، 1840.

[6] 85، شارع سان أندريه ديزار، باريس.

مثل: ستانيسلاس دي غيتا، ف.ش. بارليه، جوليان ليجاي، بولتي وغاري، أوغسطين شابوزو... علمَ الأمور الخفيّة على علومنا المعاصرة المختلفة.

تتزايد قائمة الأدباء السّحَرة الذين يمثلون المدارس جميعها يوماً بعد يوم، بدءاً من الكاثوليكي المتطرف جوزفين بيلادان؛ الرائد في الحركة، إلى الشاعر الجذّاب جيلبير أوغسطين تييري، مروراً بالكاثوليكي الاشتراكي بول آدم والشعراء ألبير جوني وإميل ميشليه، بول ماروت ول. موشيل. إذاً، ها هي مدرسةٌ جديدةٌ تلوح في الأفق، مدرسةٌ علميةٌ وفنيةٌ واجتماعيةٌ في آنٍ واحدٍ، وبالنيابة عن جميع داعميها أشكر جول ليرمينا لأنه قدّمَ موهبته الأدبية لعرضِ هذه الأطروحة التي تقول إن الحياة يمكن غرسها بطريقةٍ غامضةٍ من كائنٍ إلى آخر، وهو السرُّ الخطير لإكسير الحياة للخيميائيين القدماء والمبتدئين في الشرق.

ولكن هل يمكن للإنسان أن يصبح خالداً؟

اسألوا الدكتور براون سيكار والدكتور فاريو أو ترقبوا القصة الآتية لجول ليرمينا.

باوس.

[1]

مرَّت ثلاثة أشهر فقط منذ أن قدمت أطروحتي وحصلتُ أخيراً على الدرجة العلمية "الدكتوراه" التي كانت طموح شبابي بأكمله. كتبتُ إلى والدي العزيز بكل الفرحِ، وفتحتُ الرسالة التي أُرسلَت إليّ باندفاعٍ، مع تهنئته الحارّة؛ ورقة الخمسمئة فرنك التي ستسمح لي بالاستقرار في باريس.

طبيبٌ في باريس، وعمري سبعة وعشرون عاماً! يجب أن تكون قد مررتَ بتلك الأوهام حتى تفهم قوّتها الكاملة، وحتى تنكشف لكَ نكهتها كلها. حظيتُ باحترام أساتذتي، واجتزتُ امتحاناتي بنجاحٍ استثنائيٍّ؛ اكتسبتُ بعض الأصدقاء الموثوقين خلال سنوات الدراسة تلك. ألا يجب أن يبدو مستقبلي مشرقاً؟

كانت مواردي ضئيلةً، هذا صحيح؛ لكن والدي؛ المزارع البسيط من منطقة سارت، قدَّمَ تضحياتٍ صعبةً ليرسل إليّ مبلغاً صغيراً، وبات عليّ الاعتماد على نفسي فقط. لكنني آمنتُ بنفسي، وبشغفي بالعمل، وبالعلم المتسامح مع من يحبّه بصدق.

لذلك، شرعتُ في العمل بحزمٍ، ووضعت نصب عينيّ الحصول على الإجازة التي كنت مصمماً على متابعتها عندما بدأت في ممارسة المهنة. كنت قوياً، رصيناً؛ خلاصة القول: وجدتُ نفسي في حالةٍ ممتازةٍ، ويجب عليّ الاعتراف بشكلٍ أفضل اليوم، أنني حيث وصلت، قد تجاوزت الهدف الذي حددته لنفسي.

سيكون من الدلال من جهتي أن أصرّ على قسوة الأيام الأولى، إذ ربما أندم عليها في بعض الأحيان، أيام الشباب تلك حيث يبدو الخبز مع كأسٍ من الماء لذيذاً جداً. باختصار، عشتُ منذ بداياتي في مسكنٍ ملائمٍ، بفضل أولئك الموردين الراضين - الذين يسميهم بعضهم بغضبٍ الدائنين - والذين كانوا في الحقيقة داعمي الماليين، لأنه بالنسبة إلى أولئك ممن لا يملكون رأس مال، يجب أن يُقدّم المال لهم تحت وطأة الموت مقدماً. كان مسكني مؤثثاً بشكلٍ لائقٍ، وأرتدي ملابس مريحة، ومع أنني وفّرت قليلاً من الطعام، لكنْ لم ينتبه أحدٌ لذلك، إذ بدوتُ بمظهرٍ جيدٍ ووجهٍ صحيٍّ.

لن أقول إن المرضى توافدوا عليّ بكثرة؛ ومع ذلك أطعتُ بإخلاصٍ التعليمات الطوعية التي ناقشتها مع ضميري وعلى اللوحة النحاسية المثبّتة بالقرب من مدخل المسكن: «دكتور- طبيب، استشارات من الساعة الثانية إلى الخامسة» – وهو الإجراء الصحيح، كما ترون.

لم أكن منزعجاً كثيراً في عملي، وبإمكاني، لو أردتُ، أن أتجاهل أحياناً بعض التعليمات التي أصدرتها. لكنني احترمتُ الكلمة المعطاة، وأيضاً؛ تخيلوا فقط إذا جاء المريض في غيابي! واجهتُ صعوبةً حتى في مغادرة منزلي قبل الساعة السادسة صباحاً، وبعد تناول وجبةٍ سريعةٍ ومقتصدةٍ، أعود مسرعاً، خائفاً دائماً أن أفوّت الفرصة التي لا يمكن أن تفوّت. وغني عن القول إنني عالجتُ باقي أفراد العائلة كهاوٍ.

في إحدى أمسيات شهر أيلول، أشعلتُ مصباحي مبكراً والتقطته بجديّةٍ، أفكر في اليوم الذي سيُتاح لي فيه أن أعلن عن أفكاري ونظرياتي من أعلى المنبر، عندما انتزعني من هدوئي صوتُ جرسٍ عنيفٍ.

قفزتُ من كرسي مذهولاً، وأسرعت لأفتح الباب، ممسكاً بمصباحٍ مرفوعٍ لأتفحّص وجه الزائر. كانت سيدة مرتدية ملابس سوداء، لكن مظهرها الخارجي لم يحمل أيّاً من السمات الرومانسية التي يفترضها المرء؛ ملامح شائعة جداً، تبلغ أربعين عاماً، ممتلئة الجسم.

كانت تبكي. سارعت إلى استضافتها في "غرفة الاستشارة" الخاصة بي، وبلغةٍ معيّنة، وضعتُ نفسي تماماً تحت تصرفها. لكنني سرعان ما لاحظت أن تلك المسكينة كانت في

حالة اضطرابٍ شديد، وأنها علاوة على ذلك، صعدت سلالم الطوابق الأربعة بسرعةٍ كبيرةٍ لدرجة أنه من المستحيل عليها أن تنطق بكلمةٍ واحدةٍ.

لم أكن قد امتلكت بعد خبرةً كافيةً بصفتي طبيباً ممارساً تجعلني لا أتعاطف مع الضعف البشري، وشرعتُ في إعداد كوبٍ من الماء مع السّكر لها، عندما همسَت: «سيدي، أرجوك... تعال، تعال على الفور... طفلتي...!».

قطع كلامها تنهدٌ. لكن هل كانت بحاجةٍ إلى قول مزيدٍ من الكلام؟ كانت بحاجةٍ إلى خدمتي... والطفلة...!

لطالما عشقتُ هذه الكائنات الصغيرة، وكان من أشدّ آلامي أن أشعر بالعجز والجهل أمام مهدٍ. أوه! التهاب السّحايا! يا له من عدوٍّ! صرختُ وأنا أمسك بقبعتي: «أنا في خدمتك. هل تعيشين بعيداً عن هنا؟».

ردَّت المرأة: «لا، لا! المنزل المجاور... اعذرني على مجيئي إلى هنا، لكنْ كان الأمر وشيكاً جداً...».

لم يكن من الحكمة أن أشعر بالإهانة بسبب هذا العذر... عديم الفائدة. وأكدتُ مرةً أخرى أنني على استعداد لمتابعتها، وخرجنا.

في أثناء سيري بجانب السيدة في الشارع، سألتها عن طفلتها. ما هو المرض الذي تعاني منه؟ ومنذ متى؟

- إنها تحتضر يا سيدي! قبل ستة أشهر، كانت فتاةً نضرةً جداً، قويةً جداً، جميلةً جداً!

- كم عمرها؟

- عشر سنوات. حسناً يا سيدي، أنا أرملة... أعيش وحدي مع ابنتي. لا نخالط أحداً، باستثناء السيد فنسان...

- السيد فنسان؟

هل ظنَّت المسكينة أنها اكتشفت في لهجتي - وبشكلٍ خاطئٍ بالطبع - نيّةً مشبوهةً؟ لأنها أضافت بسرعة: «أوه! رجلٌ مسنٌّ يا سيدي، إنه في الستينيات... ربما في السبعينيات من عمره... لكنه طيبٌ جداً وهو يحبّ بولين كثيراً!».

وصلنا إلى المنزل. صعدنا إلى الطابق الثاني ودخلنا. كان المسكن نظيفاً ومرتباً جيداً، يسوده نظامٌ مثاليٌّ. من غرفة الطعام التي تستخدم كغرفة مدخل، دخلنا غرفة النوم، وهناك، للوهلة الأولى، رأيتُ تلك التي سمّتها بولين، ممددةً على سريرٍ صغيرٍ بجوار سرير والدتها.

ومن الغريب أن المرض والموت اللذين نفكر فيهما خلال فترة التدريب في المستشفى، لا يثيران فينا جزءاً من مئة من الانطباع الذي نشعر به عند سرير مرضانا الأوائل.

انقبضَ قلبي فجأةً وأصبحتُ شاحباً؛ كانت الطفلة المسكينة بيضاء اللون، شديدة البياض لدرجة أنه لم تبقَ في عروقها قطرة دمٍ واحدةٍ، وتحت الجفنين حيث الحواف زرقاء، بدت كرتا عينيها باهتتين ورماديّتين، واليدان الطويلتان والنحيلتان ممدودتان على الملاءات حيث يبرز شحوبها بوضوحٍ أكثر.

- شمعة! طلبتُ بسرعة.

انحنيتُ فوق السرير، أتفحّص بانتباهٍ عميقٍ هذا الكائن المسكين الذي ضربه الموت بإصبعه كعلامةٍ على ندائه الذي لا رجعة فيه؛ لقد كان فقر الدم في مراحله الأخيرة.

ولكن ما هو التلف الذي يمكن أن يسبب هذه الحالة؟

عندما سألتُ الأم، كرّرَت لي بتفاصيلَ أكثر أن ابنتها كانت دائماً بصحةٍ جيدةٍ، لا بل مثالية قبل ستة أشهر، وأن الجميع كان معجباً بهذه الزهرة النشيطة والسليمة كما يمكن التخمين عن الفتاة الصغيرة بالفعل.. واصلت المسكينة باكيةً: «لا يمكن إنكار أنه لم يحدث أيّ تغيير في حياتنا. نحن نعيش هنا منذ ثلاث سنوات. الشقة جيدة التهوية

وتطلُّ على الحدائق. أنا لا أرسل بولين إلى المدرسة؛ فجارنا السيد فنسان هو من يعطيها الدروس، وهو منطقيٌّ جداً ليدفعها بأسرع من اللازم في دراستها».

في الحقيقة، شعرتُ بالخوف من لمسِ هذا المخلوق الضعيف الذي أرعبني إرهاقه المفاجئ بشكلٍ لا يمكن تفسيره. ومع ذلك، لم أتمكّن من إقناع نفسي بأنه لا توجد وسيلةٌ لإنقاذها. وبمساعدة والدتها، فحصتُ الطفلة بعنايةٍ فائقةٍ، ولاحظت – بدهشةٍ حقيقيةٍ – أن تكوينها مبنيٌّ بشكلٍ رائعٍ؛ كان القلب سليماً ولم ألاحظ فيه نفخةً مميزةً لفقرِ الدم، كما لم ألاحظ آثارها في أوعية الرقبة. كانت الرئتان سليمتين ومتطورتين بشكلٍ جيدٍ. تحت هذه النحافة المفرطة، كانت البنية الحيوية استثنائية؛ لا توجد أعراض لسرطان الغدد الليمفاوية.

لم تكن الأم فقيرة؛ بفضلِ راتبٍ تقاعديٍّ صغيرٍ تتلقاه عن زوجها الذي عمل حارساً سابقاً في باريس، بلغ دخلها ألفي فرنك. علاوة على ذلك، فإن الرجل العجوز الذي حدثتني عنه؛ السيد فنسان، يعيش معها ويدفع لها مبلغاً كبيراً.

للأسف، لم تتبع الفتاة أيّ علاجٍ منتظمٍ؛ بسبب عنادٍ ينبع من عدم ثقتها غير المبررة، لم تستدعِ الأم الطبيب أبداً، مكتفيةً بعلاجاتٍ بسيطةٍ مثل الماء الحديدي – مسامير في إبريق – وما إلى ذلك.

والآن اضطررتُ إلى الاعتراف لنفسي بأن كل جهودي لإحياء هذا الجسد المنهك بشكلٍ غريبٍ لن تؤدي حتى إلى إطالة أمد الحياة، ولو لبضعة أيام.

بقيتُ هناك، مهزوماً، مكسور الروح، أنتظر بإحباطٍ الإلهام الذي لا يمكن أن يأتيني.

حدَّقت الأم بي، صامتةً، وهي تخمّن بلا شك الأفكار المؤلمة التي أفصحَ وجهي عنها. لم أكن أعرف بعد كيف أخفي عجزي تحت عباراتٍ مبتذلةٍ ومواسيةٍ. أنا لا أستحق هذا الفضل، يجب على الطبيب أن يعمل على دماغه مثلما يعمل على باقي الأعضاء.

في هذه اللحظة سمعنا صوت خطا في الغرفة الأولى، فقالت الأم: «إنه السيد فنسان».

انفتح الباب ببطءٍ؛ ولكن في اللحظة نفسها، رأيتُ جسدَ الفتاة يرتفع، ورأسها يدور، ويديها تمتدان نحو الجهة التي صدرَ منها هذا الصوت غير المحسوس تقريباً.

دعمتُ الطفلة، ولدهشتي الكبيرة، شعرتُ بجهدٍ عظيمٍ في هذا الجسد المسكين، وكأنها تريد الهروب من ذراعيّ: أُغلق الباب، وسقطَت الفتاة... ميتة...!

صرختُ مدهوشاً ويائساً في الوقت نفسه. هذا الموت السريع من دون ألمٍ، هذا الانطفاء المفاجئ للشعلة الحيوية – أذهلاني حقاً، وشعرتُ بشيءٍ من الغضب بسبب غبائي؛ لأنني في الحقيقة لم أفهم شيئاً مما حدث أمام عينيّ؛ بدا لي أنني كنت فريسةً لكابوسٍ ما.

ألقَت الأم بنفسها، وهي تصرخ منكسرة القلب، على الجسد المسكين الساكن. ابتعدتُ عن السرير، وفتحتُ الباب متجهاً نحو الغرفة الأولى بطريقةٍ آليةٍ وكأنني أشعر بالحرج من عدم جدوى وجودي.

عندها رأيت السيد فنسان للمرة الأولى.

كان يرتدي ملابس فاتحة اللون، وزيّاً رمادياً أبيض تقريباً. رجلٌ متوسط القامة، ممتلئ الجسم، لكن ما أذهلني في المقام الأول هو استحالة تحديد عمره بدقةٍ. كان شعره أبيض قصيراً ومجعداً ويتشكّل في ثلاث ذرواتٍ محددةٍ على جبينه وصدغيه. لكن وجهه كان نضراً جداً، وردياً جداً، وعيناه تضيئان بوهجٍ ساطعٍ لدرجة أنني في الحقيقة تساءلت عما إذا كنت أواجه رجلاً مسناً أم شاباً، والذي، بفضلِ تصبّغٍ أقل ندرة مما يُعتقد عادةً، ويرجع ذلك إلى الأنسجة الصبغيّة، كان من الممكن أن يكون لديه شعرٌ أبيض منذ سنّ المراهقة.

ومع ذلك، أتذكر جيداً أن والدة الفتاة المتوفاة أخبرتني عن السيد فنسان أنه رجلٌ في السبعينيات من عمره.

كان واقفاً بجوار النافذة، حزيناً، ولكن ليس بالقدر الذي وددتُ أن أجده فيه - كما بدا لي. انحنى بأدبٍ ونظرَ إليَّ بتساؤلٍ؛ فقلت له: «لقد ماتت!».

انقبضت فجأة عضلة وجهه، وفي هذه الحركة الانعكاسية، رأيتُ ملامحه كلها تتجعد، وتظهر آلاف الخطوط التي هي العلامة الأكيدة للشيخوخة؛ إذ كانت هذه النضارة الظاهرية سطحية فقط. علاوة على ذلك، بلا شك بسبب اندفاع الدم إلى القلب نتيجة الانفعال، اكتسبت بشرته فجأة لوناً أصفر كورقٍ باهتٍ، وانخفض تجويف الخدين تحت عظمتي الخدين الناتئتين. وفي لحظةٍ، غطّى قناع الموت هذا الوجه.

من دون أن ينبسَ ببنتِ شفة، ركض السيد فنسان وهو يمسك قبعته بحماسٍ محمومٍ كما لو أصابه خوفٌ يفوق طاقة تحمّله، نحو الباب الخارجي، وفتحه، وفرَّ – أستطيع أن أقول – بسرعةٍ مترنّحةٍ.

اعتقدتُ أن هذا التخلي عن صديقٍ في الساعة الأخيرة سيكون سبباً جديداً لليأس لدى الأم المسكينة، وكنت أستعد للعودة إليها، رغم زيف حالتي، عندما سمعتُ طرقاً على الباب.

معتقداً أن السيد فنسان الذي تغلّب عليه الندم، قررَ العودة مرةً أخرى، فتحتُ الباب بسرعة. لكنّ الأمر لم يكن كذلك، جاءت جارتان للاطمئنان على الفتاة الصغيرة. وعندما علمتا بالكارثة هزّتا رأسيهما بتأثرٍ، ثم قالت إحداهما: «كان من المفترض أن تنتهي الأمور بهذه الطريقة».

سألتُ بحماسٍ: «ماذا تقصدين؟!».

كانت المرأة على وشك الردّ، عندما خرجت الأم من الغرفة بعد سماعها صوتاً من الأصوات المألوفة، وألقَت بنفسها في أحضان جارتها باكية.

انتهت مهمّتي؛ انحنيت وخرجت، وشعرت بارتياحٍ لا يوصف عند مغادرة هذا المنزل حيث تعرّضت حساسيتي لمثل هذا الاختبار القاسي.

نزلتُ الدرَج ببطء، مضطرباً بكربٍ أجد صعوبة في تحديد طبيعته. بدا لي أنني أترك ورائي لغزاً عصيّاً عن التفسير. عندما مررت بكشكِ البوّاب، أوقفني سائلاً: «حسناً! سيدي الطبيب؟».

أجبتُ على عجلٍ: «لقد استُدعيت بعد فوات الأوان».

نظرَ إليّ الرجل بدهشةٍ، وكأنه لم يفهم. أعطيته بعض التوضيحات السريعة. ألقى لعنةً قويةً. ثم لوَّحَ بقبضته نحو عدوٍّ غائبٍ، وزمجرَ: «أوه! الوغد! عندما أفكر في الأمر، كانت فتاةً قوية البنية يا سيدي! طازجةً ووردية!».

- منذ متى وهي مريضة؟

- منذ ستة أشهر يا سيدي، ستة أشهر فقط!

- إذاً من دعوته بالوغد؟!

- هذا العجوز السيّئ الذي لم يكن سوى جلدٍ وعظمٍ، والذي جاء لتطعمه الأم على حساب ابنتها... أوه! لقد استغلّ الفرصة!

- ماذا؟! أتفترض أنها ماتت جوعاً؟

- حسناً! إذاً ما السبب؟

صاح صوتٌ أنثويٌّ من عمق الكشك: «هيا يا رجل! لا تشغل بالك بأمورِ الآخرين! ومن شأن الطبيب أن يعرف الحقيقة».

قال البوّاب مقاطعاً الحديث بشكلٍ غير مهذبٍ: «على العموم، هذا صحيح!».

[2]

عدتُ إلى المنزل، محموماً، ومستاءً تقريباً. ولأول مرة يستدعيني أحدهم لما أحب أن أسميه علمي، واجهتُ حالةً يائسةً؛ ولكن فجأة، قطعَ الموت طريقي! وبدا لي أنني أسمعه يهمس في أذني بكلمة اليأس النهائي: «لن تذهب أبعد من ذلك!».

لكنني لم أعانِ فقط من هذا الشعور الأناني والمهين، بل تزايد الألم الذي سيطر عليّ سابقاً. وللهروب منه حاولت ترتيب أفكاري، وتجميع الحقائق التي لاحظتها، والحصول منها على إجابة للشكوك التي أثارت استيائي.

لم تتوافق حالة هذه الطفلة مع أيّ من الملاحظات المعروفة. فتحت كتبي واحداً تلو الآخر، ولم أجد فيها شيئاً يرضيني. لم تُظهر المريضة أيّاً من الأعراض المذكورة، وهذا بالضبط ما أربكني أكثر؛ انعدام الأعراض أصبح أكثر وضوحاً في كل لحظة. هل كان من الضروري أن أصدق، وفقاً لتلميح البوّاب، بسوء المعاملة أو سوء التغذية؟ ولكن، بصرف النظر عن حقيقة أن مظهر الأم، والعاطفة العميقة والحقيقية التي تكنّها لابنتها، تدحض تماماً هذه الافتراضات، فإن الحالة الجسدية للمريضة، من وجهة النظر هذه، أعطَت مؤشرات متضاربة واضحة.

خلال الفترة القصيرة التي تمكّنتُ فيها من فحصها ومعاينتها، تفاجأت بشكلٍ خاصٍ بحالة الأعضاء الهامة السليمة. من الواضح أنه كان هناك نقصٌ في الحيوية، سواء ببطءٍ أو بسرعةٍ؛ لكن لم يحدث ذلك بسبب أيّ من تلك الحوادث التي تترك تلفاً في الجسد يسهل الكشف عنها عادة.

ولكن لماذا بدَت الجارتان الثرثارتان تفهمان جيداً ما بقي غامضاً بالنسبة إليّ؟ لماذا بدا أن البوّاب، في مداخلاته السريعة، يتهم الشخصية الغريبة التي عرفتها تحت اسم السيد فنسان، فمع أن أسلوبه ألقى عليّ انطباعاً مؤلماً، لكن لم يكن هناك أيّ دليلٍ يسمح لي بالشك... وعلى ماذا سترتكز شكوكي؟ بغض النظر عن فظاعة بعض الفرضيات، فقد توقفّتُ عندها، ومرةً أخرى، جمعت ملاحظاتي، واكتسبتُ قناعة بأنها لن ترتكز على أيّ أساسٍ محتملٍ.

ثم، أكرر، هناك تعابير وجوهٍ لا تخدع، ووجه تلك الأم ينبض بأصدق المشاعر؛ أحبت ابنتها، ولم تفارقها أبداً... لا، لا، ليس من المفيد أن أتبع دليلاً أظهر أن كل شيء كذبٌ ومحض افتراء.

في النهاية، أثارَ هذا الفحص للعقل والضمير غضبي لدرجة أنني لم أعد قادراً على البقاء وحدي لفترةٍ أطول. احتجتُ إلى سماع أصواتٍ بشريّةٍ لتبادل أفكاري وتنشيط ذهني في تدفّق التفاهات اليومية.

خرجتُ. وعندما دخلت دائرة الضوء المنبعثة من نور غاز المقهى حيث تظهر ظلال الشباب، طالعني صخبُ الترحيب. منذ أطروحتي، لم يرَني أحدٌ ثلاث مرات. وانهالت عليّ النّكات الوديّة، وتجاذبتني الأيدي لتجبرني على الجلوس أمام كومة من الصحون وبرجٍ من الأكواب الفارغة. وبالمناسبة، لم أكن بحاجةٍ إلى أن أُسأل: هذا الضجيج وهذا الاكتظاظ طمأناني.

اضطررت لتقديم سببٍ لعزلتي الدائمة، وللدفاع عن نفسي من الجحود تجاه صداقاتي القديمة، وللاعتراف بطموحاتي وآمالي، ولكن الأهم من ذلك كان رفع الأكواب وتبادل الأنخاب مراراً وتكراراً، واستيعاب الخليط المسكر الرّهيب الذي يُزيّن في بلدنا الجميل باسم الجّعة، وميزتهُ الرئيسة - التي يقدّرها البائع بشكلٍ خاصٍ - هي أن يُدفَع الشخص الأقل عطشاً إلى العطش المفترس؛ أمُّ تجديد الشباب.

تحت هذا التأثير المثير للدماغ، حتى اللحظة التي يعذّب فيها المعدة، أصبحَت أفكاري أكثر وضوحاً: استأنفتُ الإدراك النّشط للحقائق، وفي الوقت نفسه، شعرتُ برغبةٍ لا

تقهر في سردِ المغامرة الغريبة التي شاركتُ بها. وبطبيعة الحال، سرعان ما استسلمت لتلك الرغبة، وبنفسٍ واحدٍ، سردتُ الحادثة.

نظراً لأن الأمر يتعلق بطفلةٍ - المشكلة الأبدية التي تثير أكثر المتشككين - أُستمِعَ إليّ باهتمامٍ، ولم يسخر أحدٌ مني عندما عبّرتُ عن المشاعر المؤلمة التي سببها لي جهلي.

قال لي غاستون دوسو: «اسمع! الطبيب الشاب الذي ندرك جميعاً قيمته العالية، أنا لا أدعي أنني أعطيك الكلمة السّحريّة لحلِّ اللغز الذي تقدمه لنا. ستكون ملاحظتي ذات طابع أكثر عموميةً وفي الوقت نفسه ذات طبيعة، للأسف... غير مشجعة. هناك فترتان في حياة الطبيب: الفترة الأولى: فترة الشباب؛ تنطوي على الفضول المتحمّس، والرغبة في هزيمة المرض، والتفاني الذي لا يردعه أيّ شيء. وهو أيضاً وقت العمل الشّاق، حيث هناك خمس عشرة وعشرون ساعة من القراءة أو الكتابة، مع حرقِ العيون بفتائل الشموع الدخانية ذات الرائحة الكريهة. لكن بينما ندرس بجنونٍ، تسير الحياة، وتتلاطم، وتندفع حولنا وبعيداً عنا. نسدُّ آذاننا حتى لا نسمع صوت البشرية، المعاناة المرضيّة الكبيرة الصادرة من الرئتين، والقلب، والدماغ. نطلب من الآخرين العلم الجاهز، ذلك الذي كدّسه الماضي في مجلداتٍ هائلةٍ، ثقيلةٍ وثمينةٍ، ونفتقر إلى الوقت لنتعلّم سرَّ الحياة والموت في الكتاب الوحيد المفتوح دائماً، والموضّح برسومٍ توضيحيةٍ

جديدةٍ دائماً، رسومٍ صادقةٍ ومقنعةٍ، وهذا الكتاب، ها هو...»، وأشار بحركةٍ دائريةٍ إلى الشارع العريض؛ حيث ينثر الغاز شرائطه البيضاء التي تتدفق فيها جموع المشاة بلا توقف. ثم تابع: «هذا هو الدليل العظيم لعلم الأمراض الداخلية والخارجية. هذا هو علم وظائف الأعضاء في عملها. ماذا نرى نحن -الشباب- من هذا الأمر؛ نحن المشدودون إلى المستشفى أو مكتب العمل؟ وهذا مجلد، وفصل، وفقرة من الموسوعة الطبيّة الواسعة التي تمثّل المجتمع بأسره». ثم صرخَ بلهجةٍ أذهلنا صدقها: «آه! أن يكون لدينا الوقت - أي مال الحياة اليومية - وأن نكرّس أنفسنا بالكامل لقراءة المكتبة الإنسانية، من هذا القاموس العالمي الذي يعدّ كل إنسان صفحةً منه، نهجِّئه، ننسخه، نشرحه... وبعد ذلك نمارس الطب! ماذا أقول؟ بعد ذلك سيُمارس الطبّ.. لأننا حينها لن نشرّح الجثث، بل الكائنات الحية والأدمغة والصدور والقلوب.. عشر سنوات من الملاحظات المنجزة بالشجاعة الرائعة التي نضعها في تحريك رماد العالم، وسينبعث اللهب الحقيقي...!».

صرختُ: «لكن بعد العمل المحموم الذي يجب أن ندين أنفسنا به، بقي لدينا أكثر من نصف حياتنا...».

قاطعني قائلاً: «لكي يصبح الإنسان الثاني الموجود في كل طبيب؛ المحبط، المتشكك، الجاهل، الممارس العادي والروتيني الذي يصبو إلى صليب الشرف والأكاديمية. عندما نهرب من الكتب، نصبح عمياناً ولا نرى الإنسان..».

في تلك اللحظة، أطلقتُ صرخة تعجّب، ووضعتُ يدي على ذراعه: «انظر!».

اتبع الاتجاه الذي أعطاه له إصبعي، وسأل: «من هذا الرجل؟».

أجبتُ: «إنه الرجل العجوز الذي حدثتك عنه قبل قليل... السيد فنسان!».

تحت الانعكاس القاسي للبلورات المتجمدة، تقدّمَ الرجل المسنّ ببطءٍ وصعوبةٍ، وارتعشتُ عندما لاحظتُ التغيير المذهل الذي حدثَ فيه خلال ساعةٍ واحدةٍ فقط منذ أن غادرته.

بدا لي شاحباً، نحيلاً، منحنياً، مكسوراً. مع كل خطوةٍ يجرّها على الإسفلت، كان ينظر حوله، ويدير عنقه المتأرجح حتى خُيّلَ إليَّ أنني أسمع طقطقة فقراته.

صاح أحد جيراننا: «ياه! ولكن؛ إنه تيفينين العجوز! إذاً فهو لم يمت؟».

أجاب غاستون الذي نظرَ إليه باهتمامٍ أكبر: «بالفعل. لم أتعرّف عليه في البداية..».

سألتُ بلهفةٍ: «لكن من هو السيد تيفينين؟».

من دون أن يردّ عليّ مباشرة، تابع غاستون وكأنه يتحدث إلى نفسه: «التقيتُ به قبل بضعة أشهر فقط، كان نشيطاً ومجدداً شبابه...».

قلتُ: «بما أنني نفسي قبل ساعة فقط، اعتقدت عند رؤيته أنني وجهاً لوجهٍ مع رجلٍ ما يزال شاباً... فمن الممكن، بعد كل شيء، أن يكون الحزن قد أحدثَ هذا التحوّل»

قال لي غاستون وهو يلمس كتفي بخفّةٍ: «تعال! سأخبرك بما أعرفه عنه..».

السيد فنسان – سأستمر في إعطائه هذا الاسم الذي يخصّه حقاً: كان اسمه فنسان تيفينين – تجاوز منطقة الضوء التي كنا نحتلّ مركزها.

وقفتُ بسرعةٍ وتبعتُ رفيقي.

في لحظةٍ، وجدنا أثر الرجل العجوز الذي كان يتجه إلى أعلى الشارع الرئيس، تائهاً بين حشود الناس الضاحكة والمبتهجة المستمتعة بتلك الأمسية الصيفية الوفيرة والمنعشة. وبدا ظهره الضيّق كأنه ينتمي إلى شخصيةٍ مروعةٍ.

قلت لرفيقي: «تكلم! وأخبرني بسرعة عمّا تعرفه عن هذه الشخصية التي تهمني وتقلقني وتزعجني في الوقت نفسه».

أجاب غاستون: «لنتبعه أولاً. أنا أعرف ماضيه، وأودُّ أن أعرف شيئاً عن حاضره».

اضطررتُ للسيطرة على نفاد صبري، وبعد أن عدّلنا وتيرة خطانا لتتوافق مع وتيرة السيد تيفينين، رتّبنا أنفسنا بحيث لا نغفل عنه.

ثم لاحظتُ أنه يقف أمام كل مقهى، ويبقى على العتبة متفحصاً بنظراته، يبحث بلا شك عن شخصٍ ما... أو ربما امرأةٍ ما، كما أضاف غاستون ضاحكاً. في الواقع، كان يفضل الذهاب أمام المحال التي ترتادها الشابات في الحي. ثم أضاف غاستون: «إنها مجرد مزحةٍ بسيطةٍ على أيّ حال، لأنه، بصرف النظر عن حقيقة أن تيفينين كان دائماً عفيفاً جداً، فلا بد أن عمره يزيد عن مئة عام...».

عقَّبتُ مندهشاً: «مئة عام!».

تابع محاوري قائلاً: «عمري خمسة وثلاثون عاماً، وعندما كنت في الخامسة عشرة من عمري، أكد لي الشخص الذي روى لي قصة تيفينين أنه كان حيّاً بالفعل في عام 1789».

مع ذلك، استأنف الرجل العجوز – ليس سيره – بل انزلاقه الصامت الذي منحه طبعاً شبه خياليٍّ. وكلما سار، بدا وكأنه ينحني أكثر فأكثر تحت وزنٍ أصبح أثقل، وتزايد بروز مظهره الهشّ. في الحقيقة، أصبحنا نخشى أن يصبح نحيلاً لدرجة أن يتلاشى في الهواء ويختفي تماماً.

عندما وصلَ إلى نهاية الشارع الرئيس، توقف وكأنه مترددٌ في الاتجاه الذي يجب أن يسلكه. ولكن مع مرور الوقت، أصبح المشاة نادرين. ونظراً لكوننا قريبين جداً منه، وكدنا نلامسه، رأيناه يقوم بلفتةٍ غاضبةٍ ويائسةٍ في الوقت نفسه، ثم تحوَّل إلى شارعٍ جانبيٍّ.

لم نفقد أثره وسرعان ما رأيناه يعبر الشارع ويسير مباشرةً إلى باب الفناء، حيث كانت أمامه امرأةٌ بدينةٌ - من الواضح أنها البوّابة – تستنشق نسمات المساء، وعلى ركبتيها يجلس صبيٌّ في السادسة أو السابعة من عمره، قويٌّ وسمينٌ.

بمجرد أن رأى الصبي تيفينين قفزَ من حضن والدته وركض نحوه بخطواتٍ كبيرةٍ. حتى إنه اصطدم بالرجل العجوز بشدةٍ لدرجة أننا خشينا للحظة أن يطرحه أرضاً. ولكن على العكس من ذلك، وبقوةٍ فاجأتنا، أمسكه تيفينين بين ذراعيه، ورفعه عن الأرض وقبّله مطولاً.

تمتمتُ متأثراً: «الرجل المسكين؛ إنه يفكر في الفتاة الميتة!».

لكن المرأة البدينة نادت ولدها ووبخته بصوتٍ مرتفعٍ قائلة: «هل ستترك السيد.... أيها الوغد الصغير! أرجو المعذرة يا سيد فنسان...».

أجاب بلطفٍ وهو يربت على خديّ الطفل الصغير الذي عاد ليحتضنه.

تابعَت المرأة: «أوه! أعلم جيداً أنك "بابا الكعكة" لجميع الأطفال! وبمجرد أن يرونك من بعيد يركضون نحوك...».

ومع ذلك، لم يدخل السيد فنسان، على الرغم من أن البوّابة انزاحت جانباً للسماح له بالمرور. بدا متردداً، ثم قال لها بخجلٍ: «ألا تريدين أن تأتمنيني عليه...؟ سأعلّمه كثيراً من الأشياء الجميلة!».

ردّتَ البوّابة: «أوه! سيكون من دواعي سروري يا سيد فنسان؛ لكنك تعلم جيداً أنه يقيم في الريف مع جدته. تعرّضتُ لمشاكل كثيرة فقط من أجل إعارتي إياه لمدة أسبوع.. كما أن الهواء جيدٌ جداً هناك!».

لم يصر السيد فنسان. قبّلَ الطفل مرةً أخرى واختفى في الممر الطويل. بدا مجدداً شبابه بالفعل.

اقترب غاستون، وسأل: «أليس هذا العالِم السيد فنسان تيفينين الذي عاد للتو؟».

ردَّت البوابة: «نعم يا سيدي. آه! نعم إنه عالِمٌ، ورجلٌ شجاعٌ! أبٌ للأطفال؛ بالمعنى الحقيقي! وهم يعلمون ذلك جيداً، هؤلاء الأوغاد الصغار؛ أخذوا منه المال طوال اليوم».

- هل يقيم هنا؟

- منذ عشر سنوات...

- عرفته قليلاً في الماضي. يبدو لي أنه كبيرٌ في السن..

ردَّت البوّابة: «لا تنخدع، مهلاً! منذ ستة أشهر، كان في حالةٍ سيئةٍ جداً لدرجة أنه يتنفس بصعوبةٍ. وفجأة، بوووم! كما لو لمسته عصا سحريّة. لا أعرف ما الذي اخترعه ليعالج نفسه، لكنه صار في أقل من ستة أسابيع بصحةٍ جيدةٍ... كأنه شخصٌ جديدٌ! لدرجة أنني لو كنت أرملة...». ثم ضحكت بصدقٍ كامرأة يمكن أن تسمح لنفسها بقليلٍ من الفكاهة من دون أن يجد أحدٌ ما ينتقده في ذلك.

أضفتُ: «ولكن كم تعطيه من العمر؟».

ردَّت البوّابة: «أوه! ياه! في الخامسة والتسعين... على الأقل».

تابع غاستون عندما ابتعدنا قليلاً واستأنفنا مسيرتنا: «هذا هو الرجل، يحظى بتقديرٍ كبيرٍ، ومحترم للغاية ومحبّ للأطفال. ما رأيك؟».

- لا شيء. أنا في انتظار قصته.

- إنها بسيطةٌ جداً، باختصار، أعني بالنسبة إلينا نحن الذين في مجال العلم لا نكاد نعترف بالمستحيل. السيد فنسان دي بوساي دي تيفينين هو آخر سليل لعائلةٍ كبيرةٍ هاجرت خلال الثورة الفرنسية. كان والده واحداً من مئة داعمٍ ومساهمٍ بمبلغ 2400

جنيه لصالح ميسمير[7] الشهير الذي تبعه إلى سويسرا، حيث -كما تعلم - أقام صانع المعجزات الشهير حتى وفاته في عام 1815. عاد السيد دي بوساي الأب إلى فرنسا مع آل بوربون ومات بعد فترةٍ وجيزةٍ تاركاً وراءه ولداً؛ هو الشخص الذي يعنينا. تابع فنسان دروسَ كارا وسوسير، وحصل على درجاته في الطبّ، وارتبط بدولوز الشهير الذي كان يلقّب في عهد الإصلاح بأبقراط التنويم المغناطيسي الحيواني.

منذ ذلك الحين، انفصل عن الروتين الأكاديمي، وكان لسنواتٍ عديدةٍ سكرتيراً لجمعية الطاقة المغناطيسية التي أسسها الماركيز دي بويسيغور، وأصبح أخيراً صديقاً وسكرتيراً ومرافقاً للماركيز دي ميرفيل؛ مدير جمعية أفينيون ومؤلف عملٍ غريبٍ جداً عن الأرواح ومظاهرها السائلة.

قاطعتُ غاستون بسرعةٍ وصرخت: «باختصار هذا العالم الكبير روحانيٌّ، مجنون!».

ردَّ غاستون مبتسماً: «لماذا تنفعل هكذا؟ الرجل الذي لو تنبأ، قبل مئة وخمسين عاماً، بالإضاءة الكهربائية لمحطات السكك الحديدية، لبدا جديراً بأن يُحبس في ملجأ المجانين. يبدأ العلم من حقيقة بسيطة وينمو من خلال الفرضيات. مجنون!»، ثم تابع بحيويةٍ

[7] فرانز أنطون ميسمير، ولد في 1734 في إزنانغ وتوفي في 1815 في ميرسبورغ، كان طبيباً مقيماً في بادن. أسس نظرية التنويم المغناطيسي الحيوانية المعروفة باسم "الميسميرية". (المترجم).

أكثر: «هل تصدق أن كروكس هو الذي اكتشف معدناً جديداً وهو الثاليوم الذي طرح اللغز المزعج لمقياس الإشعاع، والذي ما يزال عمله المرئي غير مفسّر، هو مجنون؟ حسناً! ادرس أحدث أبحاثه وأخبرني إذا كنت ستشعر بشيءٍ يهتزُّ بداخلك تعتبره صلباً للغاية. ولكن لنعد إلى السيد فنسان. منذ حوالي عام 1825، كان هذا الرجل - الذي امتزج فيه صبر الفقير المذهل مع المثابرة النشطة للباحث - هو القائد العالمي، المعترف به والمحترم، لهذه المجموعة الغريبة من المنوِّمين مغناطيسياً والمنوَمين مغناطيسياً، وهم أكثر عدداً بكثير مما يعتقد الناس الذين لا يمكن الشك في حسن نيّتهم، ولديهم شغفٌ، وبسالة الرسالة. كان ألكسندر برتران وجورجيه من طلابه، ومع ذلك لم يسمح تيفينين بذكر اسمه أبداً. ولم يتدخل بشكلٍ مباشرٍ في الجدل الشهير مع الأكاديمية، والذي انتهى، على الرغم من تقرير هوسون، برفضِ الشركة المطلق أن تأخذ التنويم المغناطيسي على محملِ الجدّ. وأنت تعلم أن هذا القرار يعود تاريخه إلى عام 1837، بمبادرةٍ من الدكتور دوبوا دي أميان.

لم يحتج الدكتور تيفينين؛ بل على العكس من ذلك، بدا وكأنه فقدَ الاهتمام بالمسألة، وانفصل عن تلاميذه. لكني أعلم من مصدرٍ موثوقٍ أنه لم يتخلَّ عن دراسته. أخبرني الرجل الذي حصلت منه على كل هذه التفاصيل والذي كان أحد آخر طلاب تيفينين، قبل أشهر قليلة من وفاته، أن درجة علم معلمه تروّعه - وهذا هو المصطلح الذي

استخدمه. وأضاف: "لا تؤمن بأيِّ مهارةٍ خفيّةٍ، أو بأيِّ شعوذةٍ، أو بأيّ من تلك الاختلالات العقلية التي يمكن أن تفسر كل شيء بمصلحة المال أو الكبرياء، إن لم يكن الجنون". السيد فنسان هو الرجل الأكثر برودة والأكثر تمسّكاً بالوقائع الإيجابية الذي قابلته في حياتي. لم يتبع أبداً القرعات العشوائية؛ أي إنه لم يترك الأمر للمصادفة ليقرر ما إذا كانت ملاحظاته مبنيّة على أساسٍ جيدٍ أم لا. إنه ينتقل ببطءٍ من نقطةٍ إلى أخرى، خطوة بخطوة، ويُخضع كل تقدّم يُحقَّقُ لأدقِّ التحققات. ربما بسبب هذا البطء بالذات، أجدُ صعوبةً كبيرةً في متابعته؛ فخيالي دائماً ما يحملني بعيداً ويجرفني في طرقٍ خاطئةٍ، أما هو، فيسير بشكلٍ مستقيمٍ من دون أن ينحرف عن خط المسار المرسوم.

أنت تفهم كم كنت فضولياً للحصول على التفاصيل. العلم يكون حاضراً! ولكن أيّ علم؟ على كل الأسئلة التي طرحتها عليه، أجاب صديقي بحذرٍ يصل إلى حدِّ رفض إفشاء أسرار سيده. ومع ذلك، هذا ما تمكنتُ من الحصول عليه. لم يكن السيد فنسان مهتماً بالبصيرة أو التنبؤ بالمستقبل. تركِّز دراساته فقط على الواقع الفيزيولوجي، أو حتى الجسدي، للقوة المشعّة -وهو المصطلح الذي استخدمه كروكس منذ ذلك الحين- التي تنبعث من جسم الإنسان والتي يمكن أن يكون تأثيرها - جاذبة أو مخترقة - عن بعدٍ ومن دون مساعدة أي موصلٍ ماديٍّ. ترى أنه ليس هناك سوى خطوةٍ واحدةٍ إلى التنويم المغناطيسي وخاصة إلى الإيحاء.

بجرأةِ الشباب، ذهبتُ إلى السيد فنسان وحاولت الاعتراف له. إنه رجلٌ فريدٌ بالفعل، وتركَ فيّ انطباعاً لم أشعر به من قبل. في أثناء حديثي معه، مستخدماً اسم صديقي - الذي لم يعد موجوداً بعد ذلك – لعرض نفسي كي أكون خليفته بصفةِ تلميذٍ بطريقة ما، نظر إليّ السيد فنسان، والأمر الغريب هو أنني شعرتُ بتأثيرٍ لم يكن مخدراً في أثناء النوم ولا افتتاناً بالتنويم المغناطيسي؛ لكن بدا لي أن هناك جاذبيةً لا تقاوم تُمارس عليّ. افهمني جيداً، لم يكن جسدي منجذباً نحوه، بل هناك شيءٌ ينبعث من محيط جسدي بأكمله، كما لو أن مادةً أثيريّةً غير محسوسةٍ انبثقت مني نحوه من خلال مساماتي. واستمر الأثر لبضعِ ثوانٍ فقط، ثم توقف فجأةً.

سألني فجأة: "كم عمرك؟".

أجبته: "ستة وعشرون عاماً".

وتابع: "أنت تعمل كثيراً؛ أنت تبدد طاقتك بسرعةٍ كبيرةٍ ومبكراً جداً. احذر، ادخر نفسك!".

لم أفهم كثيراً، وأنا أشعر بالشباب والقوة، باستثناء أنني بعد التأثير الغريب الذي حدثتك عنه للتو، شعرتُ بنوعٍ من التعب، كما هو الحال بعد الإفراط.

حاولت العودة إلى الموضوع الذي قادني إليه، لكنه قاطعني وقال لي بشيءٍ من القسوة: "لا تتوقع شيئاً مني. في الوضع الحالي للمعرفة، أو بالأحرى أمام الجهل العالمي، يُحظّر عليّ أن أنقل ما أعرفه إلى أيّ شخصٍ".

صرخت: "ولكن لماذا إذاً؟ لماذا لا تساعدنا نحن الشباب على محاربة الرّوتين الغبي؟".

نهضَ ونظر إليّ بعينين تلمعان بلهبٍ، وخلص قائلاً: "لماذا؟! لأن... لأن علمي جريمةٌ!".

وبعد ذلك، ومن دون إصرارٍ مني، بدأ، في خطابٍ ذي بلاغةٍ مذهلةٍ، يرسم لي صورةً موسوعيةً كاملةً عن العلم الحالي. لم يكن هناك نظامٌ، ولا نظريةٌ، ولا اكتشافٌ لم يدرسه ويتحقق منه. وبحيويةٍ ساخرةٍ، أصبحَت في بعض الأحيان شرسةً، هاجم التحيّزات والخجل والجبن الذي يوقف العاملين بأجمعهم على عتبة العلم الحقيقي. نبيٌّ غير مسبوقٍ، تنبأ لي قبل عشر سنوات بالتقدم البسيط الذي أحرزناه منذ ذلك الحين؛ إذ رأى – بإيجابيةٍ – ما وراء أفقنا، وذلك من دون شعوذة، بقوة الاستنتاجات قدّرتُ دقتها بنفسي. وعندما انتهى أضاف وهو يودعني بإشارةٍ من يده: "أرفض منحك معرفتي التي هي إجرامية... نعم إجرامية! لأنها تزيد وتضاعف التفاوت الرّهيب الذي، في الصراع من أجل الحياة، يصنع المنتصرين والمهزومين".

بهذه الكلمة الغامضة، اضطررت إلى الانسحاب، وأعترفُ أنني أحمل انطباعاً بالإعجاب المرعب. نعم، في هذه الدقائق القليلة من الحديث معه، ظهرَ لي هذا الرجل ككائنٍ خارقٍ، رائعٍ ومرعبٍ في الوقت نفسه. هل كان هناك استعدادٌ عصبيٌّ؟ هذا ممكن. لكن لو أردتُ أن أصف بكلمةٍ واحدةٍ المفهوم الغريب الذي انبثق فجأةً من عقله، من دون تفكيرٍ، مثل تلك الكلمات التي تستحوذ على الذاكرة أحياناً بلا سببٍ واضحٍ، لقلتُ لك: "لا تسخر مني على الإطلاق"؛ إن هذا الرجل أثّرَ فيّ كمصاصِ دماء مُتعلم. ماذا يعني هذا؟ حتى اليوم، أشعر بالحرج الشديد لشرح ذلك بوضوحٍ. اِبحث إذا أردت! الآن فات الأوان. لنعد».

قلت: «كلمة أخرى؛ هل رأيت السيد فنسان مرةً ثانية؟».

ردَّ غاستون: «نعم، التقيتُ به مراتٍ عدة، أحياناً كان عجوزاً مكسوراً كما ظهر لنا هذا المساء؛ وأحياناً، على العكس من ذلك، مفعماً بالشباب، ورديّاً، وقويّاً».

سألتُ: «هل تعتقد أن عمره مئة عام؟».

أجاب غاستون: «تذكّر التواريخ التي ذكرتها لكَ، واستنتج».

بعد لحظةٍ انفصلنا، وسرعان ما أصبحتُ وحدي في المنزل، واستأنفتُ دراستي المتوقفة على ضوء مصباحي.

كثيراً ما سخرنا من مدى سرعة انتقال الأطفال من فكرةٍ إلى أخرى. في اللحظة التي يتركز فيها انتباههم كله على حقيقةٍ واحدةٍ، تطير ذبابة بعيداً، وفجأة يتغيّر مجرى أفكارهم، وينسون ما أثار انتباههم بشدةٍ قبل دقيقةٍ واحدة. هل الفرق بين الأطفال والكبار كبيرٌ جداً في نهاية المطاف؟ إن أهمية الحقائق التي تصرف انتباه الجميع هي في الواقع متساويةٌ ولها مقياسٌ مشتركٌ وهو شدّة أحاسيسهم المتفاوتة. يتركنا جريُ القطة غير مبالين ولا يزعجنا؛ لكن تخطفنا تنورةٌ عابرةٌ من أفكارنا الحالية وتحملنا أحياناً بعيداً عن المسار الذي كنا نتبعه.

هل لي أن أقول ما هي الظروف التي منعتني من متابعة الخطة الواضحة التي وضعتها لرؤية السيد فنسان مرةً أخرى ودراسته عن كثبٍ؟ سأجد نفسي في حيرةٍ كبيرةٍ. انطباعاتٌ جديدةٌ، بعضها عديم الجدوى، والأخرى أكثر جديّةً، فرضَت نفسها على هذا الانطباع؛ إذ نادراً ما عبرَت ذاكرتي الشخصية الغريبة من وقتٍ لآخر، ولكن مثل رؤية غامضة ومن دون تفاصيل واضحة.

مرَّت أسابيع، وأشهر، وسنتان، وحدثت تغيراتٌ هامةٌ في وضعي؛ توفي والدي، تاركاً لي ثروةً صغيرةً جمعها فلساً فلساً، بإصرار الفلاح الرائع الذي يحرم نفسه من كل شيء لضمان

مستقبل طفله. جاء العملاء، وتخلّيتُ عن مشاريعي في التدريس. وأخيراً تزوجت، وفي المواعيد القانونية الصارمة، أصبحت أباً لفتاةٍ صغيرةٍ جميلةٍ.

يمكننا أن نخمّن أن السيد فنسان وعلم الجريمة الخاص به كانا بعيدين عن أفكاري. ومرَّت السنوات مرةً بعد مرة. جاءت الراحة؛ حيث أحدثت دراستي عن الأمراض العصبية وتجاربي على حالات الهستيريا بعض الضجيج. كبرَت ابنتي وأصبحَت رائعةً ومحبوبةً أكثر فأكثر. كنت سعيداً، ومع ذلك كان لدي قصة، لأن الأكاديميات تلقَّت رسائلي، والمجلات وطبعتها؛ إذ وضعني وباء الكوليرا في دائرة الضوء مرةً واحدةً وإلى الأبد ولفتَ انتباه الحكومة إليّ.

مرَّت عشر سنوات بالضبط منذ أن أمضيت بضع ساعات في الدردشة على الرصيف مع صديقي ومعلمي غاستون حول الشخصية المعنيّة، ونسيتُ حتى اسمه، عندما ذكّرتني المصادفة التي تتحكم في كل شيءٍ في حياتنا، وذكره لي في ظروفٍ أكثر غرابةً من المرة الأولى.

كتب إليّ أحد زملائي، الدكتور فـ...؛ مدير أحد المراكز الصحيّة، رسالةً يطلب مني الحضور إلى منزله – في وقت فراغي – من أجل فحص أحد مرضاه.

عندما وجدتُ نفسي مثقلاً بالعمل، تأخرت بضعة أيام في قبول دعوته. ولكن بعد استلام رسالةٍ جديدةٍ أكثر إلحاحاً، أسرعتُ بالذهاب إلى منزله. كانت الحالة التي أراد مناقشتها من أكثر الحالات إثارة للاهتمام وتتناسب تماماً مع تخصص الدراسات التي كرّستُ نفسي لها. إذ يتعلق الأمر بالظاهرة الغريبة جداً المتمثلة في انقسام الشخصية، وانغمسنا لساعاتٍ عدة في تجارب مثيرةٍ للاهتمام باستمرار. ولكن، خوفاً من إرهاق المريضة بشكلٍ زائدٍ، حددنا موعداً لليوم التالي.

نزلنا إلى الحديقة التي تسبق المنشأة الرائعة التي تعرفها أوروبا كلها وتعجب بها، رافقني زميلي بهدوءٍ، وأبلغني بنتيجة ملاحظاته الشخصية حول الموضوع الذي درسناه للتو.

في اللحظة التي أوشكنا فيها على عبور بوابة المدخل وتبادل مصافحة الوداع، خرج صبيٌّ صغيرٌ من ممرات الغار والنوَّار الأبيض، وركضَ نحو الطبيب، ملقياً نفسه بين ذراعيه.

فرفعَه وقال لي: «سيدي، هذا ابني.. ثماني سنوات.. إنه حسِن الخلق».

كان طفلاً جميلاً للغاية، وملامحه دقيقة، لكنه بدا لي شاحباً بعض الشيء. داعبته وأنا أفكر في ابنتي الصغيرة الوردية والنضرة جداً، وسألت: «لماذا كنت تجري بهذه السرعة؟ يبدو وكأنك تهرب!».

كان سؤالاً تافهاً لم أعلّق عليه أيّ أهمية؛ فردَّ الطفل: «أوه! إنه من أجل المزاح! إنه من أجل إثارة السيد فنسان...».

صرخت: «السيد فنسان؟! أيّ سيد فنسان هذا؟!».

تردد هذا الاسم في ذاكرتي كصوتِ بوق النفير.

أجاب الطفل بشيءٍ من الانزعاج: «يا إلهي! لا يوجد سوى سيد فنسان واحد... إنه "بابا الكعكة!"».

"بابا الكعكة!" هكذا كانوا ينادون السيد فنسان منذ عشر سنوات.

أضاف زميلي: «إنه شخصيةٌ فريدةٌ للغاية».

- هل يمكن أن يكون فنسان... تيفينين؟

- هو نفسه. هل تعرفه؟

- إذاً، فهو لم يمت!

قال الطبيب ضاحكاً: «أوه! أنت أيضاً ظننتَ أنه اختفى. بالعكس، يبلغ من العمر ما بين مئة وعشرة إلى مئة وخمسة عشر عاماً يا عزيزي. بعد هذا، ليقال إن الجنون ليس ضماناً لطول العمر!».

- منذ متى هو في منزلك؟

- منذ حوالي أربعة أشهر. دخلَه في ظروفٍ غريبةٍ جداً سأخبرك عنها غداً؛ لأن يومي يستدعيني. إنها الساعة السادسة...

- الساعة السادسة! أنا أيضاً متأخرٌ. سأراك غداً، وسنتحدث عن السيد فنسان.

- تحت أمرك أيها الزميل العزيز.

ألقيتُ بنفسي داخل عربتي، وأغلقتُ بابها خلفي. كنتُ في حالة اضطرابٍ غريبٍ، يقضُّ مضجعي فضولٌ لا يُوصف. في لحظةٍ، رأيتُ الماضي بأكمله مرةً أخرى، الشقة الصغيرة التي انتظرتُ فيها بفارغ الصبر عميلاً تأخر كثيراً، ثم الأم المسكينة التي تجري وتستغيث بي، ثم سرير الجنازة الذي ترقد فيه الفتاة الصغيرة.. تساءلتُ عما إذا كنت اليوم، في مواجهة مشكلة الموت نفسها، سأكون أكثر براعةً من ذلك الحين. وفي الحقيقة ارتعدتُ وقلتُ لنفسي إنني اليوم، كما في ذلك الوقت، لم أفهم شيئاً عن هذه الكارثة. حاولتُ إنقاذ كبريائي، على افتراض أن بعض الأعراض قد أفلتت من تشخيصي والتي ستصدمني الآن للوهلة الأولى. وشعرتُ وكأنني أكذب على نفسي. لا، لم أتنبأ بأيّ شيء، وإذا استُدعيتُ غداً في ظلِّ ظروفٍ مماثلةٍ، فلن أتنبأ بأيّ شيء!

إلى هذه المعاناة من احترام الذات، وإلى هذا الندم الصادق للعامل، تجاور ذكرى السيد فنسان، هذا الكائن الباهت، شبه الخيالي الذي عاش، وما يزال يعيش على الرغم من الشيخوخة المروّعة التي أربكتنا بشدةٍ، أنا وغاستون، ونحن نتبعه في الشوارع.

بأيّة معجزة قاوم الثقل الساحق لقرنٍ أضيفت إليه عشرُ سنوات أخرى؟! تذكرت الكلمات الغريبة التي قالها لي غاستون: «تزيد معرفتي الإجرامية وتضاعف التفاوت الرهيب الذي، في الصراع من أجل الحياة، يصنع المنتصرين والمهزومين».

هربَت تلك الكلمة أيضاً من صديقي كتعبيرٍ عن فكرةٍ انعكاسيةٍ: «مصّاص دماء مُتعلم».

لم يكن لتلك الكلمات المقترنة في الواقع أيّ معنى في ذهني؛ لكنني كررتها بداخلي بنوعٍ من الرعب، كمصطلحاتٍ لمعضلةٍ غير قابلة للحل، أو كتعبيرٍ عن جبرٍ مجهولٍ.

حتى عودتي إلى مكتبي، كان من المستحيل بالنسبة إليّ أن أهرب من هذا الهوس. لحسن الحظ، تغلّب العمل، ثم المشاغل المسائية، ثم النوم، على هذه الحالة غير الطبيعية. في الصباح، اختفى الوسواس، ومن كل هذه المشاعر، لم أحتفظ إلا بحكّة الفضول التي لم تعد تحمل أيّ شيءٍ مَرضيّ.

في الموعد المحدد، قدمتُ نفسي مرةً أخرى إلى الدكتور ف.. الذي بدا لي قلقاً. سألته باهتمامٍ يحكمه التعاطف الصادق الذي ألهمني إياه، وعلمتُ أن صحة ابنه تثير فيه مخاوفَ غامضةً منذ بعض الوقت. قطعَ هذه الاعترافات، واستعادها بشغف الباحث، وذهبنا إلى المستوصف حيث فحصنا المريضة في اليوم السابق. بقينا لساعاتٍ عدة مستغرقين في دراسة المظاهر المذهلة للتخشّب والتنويم المغناطيسي. ثم عدنا إلى عيادة الطبيب لتنسيق ملاحظاتنا.

قلت له: «الآن، اسمح لي أن أذكرك أنكَ وعدتني بالأمس بأن تحدثني بتفصيلٍ أكثر عن نزيلك؛ السيد فنسان».

ردَّ الطبيب: «لم أنسَك، وسأفعل أفضل من عرضِ ذكرياتي عليك. اعتدتُ، عندما يدخل عملائي، أن أكتب الظروف المثيرة حول مقابلتنا الأولى»، ثم نهض وفتح صندوقاً وأخرج بعض الأوراق وناولني إياها، وأضاف: «اقرأ بينما أقوم ببعض الأعمال الضرورية. سأعود في وقتٍ لاحقٍ».

تركني وحدي، وهذا ما قرأته:

«اليوم، 15 نيسان 1888، في الساعة السادسة مساءً، تلقيتُ بطاقة زائر يطلب إجراء مقابلةٍ فوريةٍ. وحملت البطاقة هذا الاسم: فنسان دي بوساي دي تيفينين، من كلية الطبّ بباريس. انتابتني حركةٌ مفاجئةٌ. باعتباري طبيباً للمجانين، كان عليَّ أن أولي اهتماماً خاصاً لتاريخ التنويم المغناطيسي الحيواني، وتذكرت أن هذا الاسم لفتَ انتباهي في وقتٍ بعيدٍ جداً. وبدا لي أنه لا بد أن يحمله أحد معاصري جدي أو والدي على الأقل. أمرتُ بإدخال الشخص الذي قدّمَ هذه البطاقة على الفور، وبعد لحظة رأيتُ رجلاً عجوزاً يدخل، يحمل في كيانه بالكامل آثار الشيخوخة بوضوحٍ، على الرغم من وجود آثارٍ فريدةٍ من النّضارة غير العادية على وجهه، ما تزال خطوته تظهر بعض الحيوية.

انحنى السيد تيفينين، رددتُ عليه السلام بتخصيص مقعدٍ له، ثم طلبتُ منه أن يخبرني عن سبب زيارته.

قال لي بصوتٍ لا يحمل ارتعاش الشيخوخة: "أتيتُ لأطلب منك أن تستقبلني كنزيلٍ..."، وأضاف بسرعة وكأنه يجيب مسبقاً على اعتراضٍ محتملٍ: «أوه، بالطبع مقابل مبلغٍ ماليٍّ».

قلت له: "عذراً، لكن هل أنت حقاً الدكتور تيفينين؟".

- أنا تلميذُ ميسمير السابق؛ صديق بويسيغور. نعم، أنا هو.

- لا بد أنك كبيرٌ في السن...

- عمري مئة وتسع سنوات...

- لا تعتبر هذا الاعتراض الذي سأطرحه عليك هو هزيمة؛ لكن ألا تعلم أن بيتي مخصصٌ للمجانين تحديداً؟

- أنا أعرف ذلك. طلبي له ما يبرره؛ أنا مجنون!

على الرغم من أنني معتادٌ على انحرافاتٍ عديدةٍ، فإن هذا الأمر بدا لي متجاوزاً الحدود قليلاً، فقلتُ له: "ستسمح لي بالشك في ذلك؛ تبدو لي عاقلاً تماماً!".

أضاف بالهدوء نفسه: "أنت مخطئ، أنا مجنون، وسأؤكد على هذه النقطة، أنا أحد أخطر المجانين في الوجود".

أجبته: "حسناً! ولكن بما أنك طبيبٌ، وواحدٌ من أكثر الأطباء علماً، فمن المؤكد أنك حلَّلْت حالتك ويمكنك أن تعطيني بسهولة أسباب تأكيدك القاطع".

ثبّتَ عينيه الثاقبتين عليّ بتركيزٍ غريبٍ. ففهمتُ كيف كان هذا الرجل، في مقتبل حياته، واحداً من أكثر أتباع التنويم المغناطيسي حماساً وإقناعاً. ظلَّ صامتاً لبضعِ دقائق، منغمساً في ملاحظتي.

ثم تابعت: "في هذه اللحظة، بلا شك، بقبول فرضيتك، تشعر أنك تجد نفسك في ما يمكن أن أسمّيه لحظةً واعيةً"

قاطعني قائلاً: "هذا خطأ!"

استأنفتُ: "ومع ذلك، أعتقد أن لدي بعض الخبرة، ولا أجد فيك، في ملامحك، في مظهرك، أيّ علامة مميزة على الاختلال العقلي".

قال: "أخطر الجنون هو ذلك الذي لا يمكن للعين البشرية أن تخمّنه"، وأضاف بصوتٍ منخفضٍ لا يكاد يُسمع: "أنا مجنون منذ خمسين سنة، ولم يشك في حالي أحد من العلماء".

سألته: "ولكن في النهاية، في ماذا يتجلى هذا الجنون؟ هل لديك رؤى؟ هل تستحضر الموتى؟ هل تعتقد أنك محمد أم يسوع المسيح؟ هل أنت مصنوعٌ من الزجاج؟ ألست أنتَ نفسك؟".

أجاب بوضوحٍ: "أنا الرجل الذي لا يستطيع أن يموت والذي، حتى يومنا هذا، لم يرغب في ذلك".

- إذاً، وفقاً لرأيك، بفضل إرادتك وحدها تمكّنت من العيش مئة وعشر سنوات؟

- نعم، هذا صحيح.

- هل لديك وسائل معصومة لإطالة حياة الإنسان؟

- ليس حياة الآخرين، بل حياتي.

- العمل العظيم! الحجر الفيلسوف..

- لا حتى الخيمياء، بالمعنى الذي تفهمه.

- وهذه الوسيلة، هل أنت على استعداد لإخباري بها؟

أدركتُ الآن أنني أتعامل مع نوعٍ خاصٍ من الهوس المنطقي، وبذلتُ جهداً لدفع الموضوع إلى أبعد من ذلك في ميدانه الخاص.

تابع من دون انفعال: "لا أستطيع أن أقول لك شيئاً، وذلك لسببين...".

- ما هما؟

- السبب الأول؛ هو أنه بإفشاء سرّي لك في الوضع الحالي للمجتمع، سأتعرّض لمخاطر جمّة بأن أُعامل كواحدٍ من أسوأ المجرمين...

- ولكن هل تعترف بأنك مذنب؟

- لا، بسبب القوانين العليا للكفاح من أجل الحياة. نعم في ظلِّ الأحكام المسبقة السائدة..

- هل قتلت أحداً؟

- نعم، أجابني من دون تردد.

- هل اكتُشِفَت جرائمك؟

- لا.

- هل أدَّت جرائمك إلى إلحاق الأذية بالأبرياء؟

- لا.

- ومع ذلك، ضحاياك... ماذا حدثَ لهم؟ هل جعلتهم يختفون؟

- لا.

- ولم يلاحظ أحد أنهم توفوا بموتٍ عنيفٍ؟

- لا أحد.

لقد ظهر الجنون بوضوحٍ أكثر فأكثر؛ فقلتُ له: "حدثني عن سببين فرضا عليك الصمت. فما هو السبب الثاني؟".

تابع بنبرةٍ مهيبةٍ: "أنا صامتٌ، لأنه أحد أمرين: إما بعد معرفتك سرّي، ستكون عاجزاً عن استخدامه، أو، بعد أن تتمكن من استخدامه، سترتكب الجرائم التي ارتكبتها...".

فقلت مبتسماً: "لا شك أن هناك مُستحضراً ساماً لا يترك أيّ أثر؟».

- لا تبحث؛ لن تتمكن من العثور عليه. إلى جانب ذلك، لننهي الأمر؛ أنا آتٍ إليك أيها الطبيب النفساني، وأقول لك: "أنا مجنونٌ، مجنونٌ خطيرٌ!". هل ترغب في استضافتي؟

- سيخوّلك الدخول الطوعي الخروج الطوعي. لا أستطيع أن أدخلك إلى منزلي إلا بشرط أن أمتلك السُلطة الكاملة عليك. للقيام بذلك، سيتعيّن عليك الخضوع لفحصٍ من قِبَل طبيبين وستكون شهادتهما ضمانتي. هل توافق على هذا الشرط؟

- نعم. ولكن بدوري أضع شروطي.

- أنا أستمع إليك.

- هدفي من دخول منزلك هو أن أموت. طالما أنني حرٌّ، فأنا واثقٌ من أنني سأعيش، ولا أملك الشجاعة لعدم استخدام سرّي. هنا لن أكون قادراً على القيام بذلك، وبالتالي ستعمل الطبيعة بمفردها. أطالب بأن أعامل كباقي نزلائك الآخرين مع فارقٍ وحيدٍ وهو أنه لن يُسمح لأيّ شخصٍ من الخارج بالاقتراب مني.

- هل لديك أقارب أو أصدقاء؟

- أنا وحيدٌ، وحيدٌ تماماً. لا أحد لديه سُلطة عليّ.

- أستطيع أن أؤكد لك أن رغبتك ستُحترم، ما لم تطلب الإدارة العليا مثولك...

- أوه! هذا ليس ذا أهمية بالنسبة إليّ. لذا، لا تدع أحداً يصل إليّ، بخلافك أنتَ وممرضوك. ومن ناحية أخرى، أستطيع أن أؤكد لكَ أنه لن يلاحظ أحد جنوني، وأنني لن أعاني من نوبات غضبٍ أو خيالاتٍ غريبة الأطوار. بالإضافة إلى ذلك، إذا التزمتَ بإخلاصٍ بالاتفاق الذي نوقّعه هنا، خلال ثلاثة أشهر... سأكون ميتاً.

- تعلم أن المراقبة التي يمارسها الحراس تستبعد أيّ احتمال للانتحار.

- أوه! لن يتمكنوا من فعل أيّ شيءٍ ضدي.

- تعلم أيضاً أنه قبل إيداعك في الغرفة التي اخترتها، ستُفتش وستُفحص بدقةٍ شديدةٍ بحيث سيكون من المستحيل عليك الاحتفاظ بأيّ مادة تمكنك من قتل نفسك.

قال مبتسماً للمرة الأولى منذ بداية حديثنا: "لن يجردوني من عمري المئة وعشر سنوات. أعرف مخزون الحياة الذي تبقى في داخلي... حوالي اثنا عشر أسبوعاً".

بما أن كل المناقشات تبدو عديمة الفائدة، لم يتبقَ لي سوى قبول عميلي الغريب، الذي حدّدَ بنفسه أسعاراً مرتفعة للغاية، مقابل الحصول على راحةٍ كبيرةٍ...».

هنا انتهت مخطوطة الطبيب. وفي الهامش، كُتِبَت هذه الملاحظة: "الجناح 2، رقم 17".

قرأتُ هذه السطور باهتمامٍ شديدٍ، وعندما انتهيت، شعرتُ بخيبة الأمل. ظلَّ السيد فنسان محاطاً بالغموض بالنسبة إليّ كما كان عليه في الماضي.

عادَ زميلي، وسألني: «حسناً! ما رأيك في تلميذ ميسمير السابق؟».

- لا أعرف حقاً ماذا أجيبك. ثمة جنونٌ غير عاديٍّ. لكنني أفكر في الأمر؛ دخل السيد تيفينين إلى هنا في 15 نيسان، ونحن اليوم في 10 أيلول. ومع ذلك، فهو ما يزال على قيد الحياة؛ لذلك خدعه تشخيصه المعصوم.

- قطعاً!

- كيف تصرّفَ منذ أن أصبح ضيفك؟

- بصفته نزيلاً، لم أقابل قط شخصاً أكثر طاعةً ولا أسهل في التعامل منه. تعاون بكل سخاءٍ أولاً مع الفحص الذي أجراه زميلاي، اللذان لم يترددا في تأكيد تشخيصي بالهوس الأحادي. كان في الواقع مثالاً كافياً للاستقامة المعقولة في جميع الجوانب، باستثناء واحد فقط. لذلك، وبعد تسوية وضعه، لم يكن لدي أيّ هدفٍ آخر سوى أن أجعل سنواته الأخيرة - أو أشهره الأخيرة - مريحة قدر المستطاع. نقلته إلى جناحٍ معزولٍ به حديقة واسعة كفاية، وعيّنتُ ممرضين خصيصاً لخدمته. كما جمّعَ مكتبةً علميّةً مثيرةً

للاهتمام ويبدو أنه يعمل فيها. لكنْ تفصيلٌ واحدٌ يثبت اضطراب عقله؛ أمضى ساعات عديدة مستلقياً عارياً على الأرض لمدة خمسة عشر يوماً على التوالي. لقد حذرني بالفعل، مضيفاً أنه يحاول إجراء تجربة. ونظراً لأن ذلك حدث في شهر حزيران خلال فترة شديدة الحرارة، لم أعتقد أنه يتعيّن عليّ أن أعارض ذلك. وسرعان ما تخلى عن هذا الأمر من تلقاء نفسه.

لم ألاحظ أيّ تغيير فيه خلال الشهر الأول. ولكن، ابتداءً من منتصف شهر أيار، بدأت أعراض التدهور في الظهور، وعندما قامَ بتجربته الفريدة في شهر حزيران، اعتقدتُ حقاً أنه تنبأ بشكلٍ صحيحٍ بتاريخ وفاته بتحديده بثلاثة أشهر. وعندما انتهت نوبة العُريّ – اعذرني على التعبير – استأنفنا علاقاتنا العادية. أعترفُ أنني نادراً ما واجهت مثل سعة الاطلاع والجرأة في الأفكار هذه في أحد زملائي. لو لم يكن لدى هذا الرجل هوس التنويم المغناطيسي المزدوج ولما سميته بالإرادة الحيوية المزعومة، لكنت أعلنته أحد أعظم العلماء في يومنا هذا. وفي أوائل أيام شهر تموز، لاحظت أن قوته تتراجع تدريجياً من دون أن يتضاءل صفاء ذهنه. شعرت فقط بالشفقة تجاهه، أعترف أن هذا المعمر كان وحيداً ومهجوراً من قِبَل الجميع، وقضى أيامه الأخيرة جالساً على كرسيٍّ بذراعين، يبحث عن الشمس المنعشة. وفي أحد الأيام، أدركتُ أنه يعشق الأطفال، فأحضرتُ ابني الصغير إلى جانبه. ولا أستطيع أن أصف لك تعبير الفرح الذي أضاء وجهه. لو لم أكن

أعرفه جيداً، لشعرتُ بالرعب تقريباً من البريق الذي عبرَ عينيه فجأة. أما ابني الصغير جورج، فلم يتردد في إظهار عاطفته تجاهه؛ ركض نحوه وكأنه يعرفه منذ سنوات طويلة. كانت صداقةً فجائيةً، كما يتخيلها الأطفال غالباً. ومنذ ذلك الحين، لا يمرُّ يومٌ من دون أن يقضي فيه جورج ساعات عديدة معه. كان تأثير هذا الإلهاء على المعمّر كبيراً لدرجة أنه بدا حقاً منذ ذلك الحين أنه استعاد شباباً جديداً... نعم، إنه كما لو أن دماءً مجددةً تدفقت في عروقه؛ إذ اختفت نحافته، ولن أتفاجأ إذا صار لديه عَقدٌ جديدٌ مع الحياة؛ إنه تنظيمٌ مذهلٌ.

- لكن ألم تخبرني عند وصولي أن حالة ابنك تقلقك قليلاً؟

- أوه! لديه بعضُ الضعف، تعب الصيف... ومن ثم النمو. إنه هادئٌ؛ قبل شهرين، كان نشطاً جداً، ولكنه سيستعيد حيويته.

منذ لحظاتٍ قليلةٍ، سيطرت عليّ الرغبة في رؤية هذه الشخصية الفريدة التي لم أرَها إلا في ظروفٍ غريبةٍ إلى حدٍّ ما، وشاركتُ زميلي بهذا الشعور. لكنه لفتَ انتباهي إلى أن الالتزام الذي قطعه على نفسه جعل من المستحيل تحقيق هذه الرغبة. ألم يمنع نفسه رسمياً من تقديم أيّ شخصٍ إلى السيد فنسان لم يكن عضواً في طاقم المؤسسة؟

لم يبقَ لي سوى أن أرضخ للأمر. لم أصر، وودعت زميلي عازماً على إزالة الأفكار غير المتماسكة والمجنونة تقريباً من ذهني، والتي تؤرقني بشكلٍ مؤلمٍ.

نعم، يسكنني رعبٌ غير مبررٍ بداخلي يشبه الدوار. مثل باسكال، رأيت هاويةً مفتوحةً أمامي، وفي الأعماق، هناك في الأسفل، رأيت وجهاً مستهزئاً يحمل ملامح تلميذ ميسمير!

[3]

استأنفت نشاطاتي ونسيت مجدداً الذكرى المزعجة لهذه الشخصية حينما استلمتُ في صباح أحد أوائل أيام تشرين الأول برقيةً أثارت فيَّ مشاعرَ لا توصف، موقّعة من قِبَل الدكتور ف...، وكانت تتضمن عبارة واحدة: «طفلي يحتضر. أستنجد بجميع أصدقائي... تعالوا».

قفزتُ من كرسيي بسرعةٍ، وبعد لحظاتٍ قليلةٍ، وَثبتُ داخل عربةٍ كان سائقها، بعد أن استدرجته بوعدٍ بإكراميةٍ كبيرةٍ، يجلد حصانه بقوةٍ.

لا أستطيع أن أقول إن هذه البرقية فاجأتني؛ إذ وراء الانشغالات اليومية التي أتخذُ منها درعاً من رؤى الذكرى، كانت هناك فكرةٌ كامنةٌ بدا لي أن هذا الخبر هو انفجارها.

ترتبط صورة السيد فنسان المحفورة في فصوص عقلي، بشكلٍ لا يمكن انفصالها عنها، بصورة طفلٍ؛ بتلك الفتاة المسكينة التي رأيتها هناك، ميتة بعدما كانت تحتضر، والتي تركَت هذا الانطباع – الذي لا قيمة له على الإطلاق من وجهة نظر العلم الحقيقي – لاقتلاع الحياة، وقوة الروح.

وهنا مرةً أخرى، اختلط ظهور هذا المعمّر، العنيد في الحفاظ على حياته، مع ظهور طفلٍ، بدا قوياً جداً قبل ستة أشهر، والذي يحتضر اليوم!

لم أشعر بطولِ الرحلة، ولم أكن مدركاً لها حتى، كنت مستغرقاً تماماً في تأملاتي، وعندما توقفت العربة، ونزل السائق، فتح الباب صارخاً في وجهي: «أيها البرجوازي، لقد وصلنا!». نزلتُ من العربة مترنحاً كرجلٍ مخمورٍ، لا أعرف أين أنا ولا إلى أين أذهب.

لقد كان أمراً غريزياً، ولا شيء غيره، بعد أن رحّبَ بي البوّاب، دخلتُ إلى الطريق الطويل المليء بأشجار الدردار المؤدي إلى المبنى الرئيس.

عندما وصلت إلى الدرج، تعرّف عليّ أحد الممرضين الذي وقف كالحارس هناك، ومن دون أن يسألني حتى عن اسمي، سبقني إلى داخل المنزل، وفتح باباً ليدخلني إلى غرفة المعيشة حيث، للوهلة الأولى، تعرّفتُ على أربعة من زملائي الذين استُدعوا مثلي بلا شك من خلال البرقية، صافحوني بصمتٍ.

بعد فترةٍ قصيرةٍ من الصمت الذي لم أحاول اختراقه، إذ لم أتمكّن من نطق كلمتين مفهومتين، تحدث إحدهم.

لقد فحصوا الطفل، ولاحظوا جميعاً أن الأعضاء سليمةٌ، ولا تظهر عليها أيّ علاماتٍ تدعو إلى القلق من نهايةٍ محتومةٍ. ومع ذلك، وعلى الرغم من هذا التشخيص المشترك بينهم، فإنهم لم يخفوا عن أنفسهم أن الوضع خطيرٌ؛ كان لدى الطفل المسكين نوعٌ من استنزافٍ للقدرات الحيوية (هذه الكلمة صدمتني)، وهذا من دون وجود تلفٍ ملموسٍ يفسّر هذا التدهور.

في تلك اللحظة، انضمَّ إلينا الأب؛ كان في حالةٍ من اليأس تجعل النظر إليه مؤلماً. بعد أن فقد امرأة يعشقها قبل عامين، نقلَ كل عواطفه إلى هذا الكائن الصغير الذي أخذه مرضٌ غامضٌ فجأةً. حين رآني اتجه نحوي مباشرة، أراد أن يتحدث معي؛ ولكن التنهدات التي ملأت حلقه منعته، فأخذ بيدي واقتادني بعيداً.

بعد لحظةٍ، صرتُ بجوارِ السرير، وأنا صامتٌ، متجمدٌ، أتعرّف برعبٍ على تلك الظواهر نفسها التي تركت حيرةً لا تُمحى في ذهني قبل عشر سنوات. لم يعد الطفل يتحرك، بدا كأنه فقدَ دمه بأكمله. كان هناك إعياءٌ تامٌ، كما لو أن دمه كله يتدفّق من جرحٍ غير مرئيٍّ؛ كان الوهم مكتملاً لدرجة أنني سألت الأب المسكين، بتلعثمٍ، ما إذا كان هناك نزيفٌ.

فأجابني بصوتٍ خافتٍ: «لم يتعرّض الطفل لأيّ حادثٍ؛ حدث هذا التدهور ببطءٍ، ثم فجأةً، تفاقم المرض بسرعة البرق خلال الأيام الأخيرة. ومع ذلك، قبل يومين كان يركض في الحديقة».

سألت فجأةً، مطيعاً لدافعٍ لم أكن سيّده: «هل ما يزال السيد فنسان على قيد الحياة؟».

كنت لأقسم أن شخصيةً أخرى غير شخصيتي تحدثت من خلال فمي؛ إذ تدفقت هذه الكلمات من دون علمي.

لم يبدُ الأب متفاجئاً من سؤالي، وأجاب: «نعم، وهو في حالة حزنٍ شديدٍ! إنه يحبّ ابني الصغير جورج كثيراً، والذي يبادله عاطفته، علاوة على ذلك، لم يرغب في تركه؛ فتعيّن علينا أن نحمله لإحضاره إلى هنا، وعلى الرغم من ضعفه، ظلَّ يقاوم. كان الأمر كعامل جذبٍ لا يريد الابتعاد عنه... لكن بماذا نهتم بالسيد فنسان؟ افحص الطفل وأخبرني – أوه، من فضلك! - أننا سننقذه...».

لم تكن لدي الشجاعة لقول هذه الكذبة السخيّة؛ لأنه إذا مادام لدى زملائي بعض الأمل، فهل يمكنني أن أشك؟ ومع ذلك، ما تزال فكرةٌ غامضةٌ تنبُت في ذهني.

بقينا على هذه الحال، ولم يعد الأب يجرؤ على سؤالي خوفاً من سماع حُكم اليأس يتساقط من شفتيّ. لم أجرؤ على الانجراف في الطريق الغامض الذي شعرت بأنني أنزلق فيه بشكلٍ لا يمكن تجاوزه.

وفجأة خرجَ من شفتيّ الطفل صوتٌ خافتٌ يشبه النفس، وتنهد: «السيد فنسان!».

قال الأب: «كما ترى، إنه يريد أن يرى صديقه مرةً أخرى».

لكنني اندفعتُ بالفعل نحو النافذة... وعندما أزحتُ الستائر جانباً، رأيت هذا الرجل وهو يمشي في الممر، تحت إشراف ممرّضين، متجهاً نحو المنزل، فصرخت مخاطباً الأب: «بحياتك! لا تترك طفلك ثانية واحدة، ومهما فعلتُ، وحتى لو جاء شخصٌ ليخبرك عني، فقل إنني أتصرف بأمرك».

- ولكن ماذا تقصد؟

- لا تنسَ... أنا أتصرف بأمرك!

ومن دون شرحٍ إضافيٍّ، لأنني رأيت الطفل ينهض تدريجياً، اندفعتُ خارجاً. وعلى عتبة الدرج، رأيت السيد فنسان يتأهب للصعود إلى الطابق العلوي، فقلت له بعنفٍ وأنا أمسكه من ذراعه: «أنا أمنعك من أن تخطو خطوة واحدة إلى الأمام!».

سأل العجوز: «من أنت؟! ماذا تريد مني؟!».

التفتُّ إلى الممرّضين اللذين توقفا في صمتٍ، وقلت: «أريد أن أتحدث إلى سيدكما...»، ثم مخاطباً العجوز: «أكرر لك أنك لن تمرَّ هنا. أنا أتصرف بناءً على أوامر الطبيب فـ.. نفسه الذي أمر بإعادتك فوراً إلى جناحك».

قدَّمتُ نفسي للممرّضين اللذين لم يريا أنه من المناسب عصياني. علاوة على ذلك، مرّرتُ ذراعي بإحكامٍ تحت ذراع الرجل العجوز وجررته بسرعةٍ؛ إذ لم يكن قوياً كفاية لمقاومتي. فقلت لأحد الرجلين: «أنت! اذهب إلى سيدك وأخبره أنني سأعود بعد نصف ساعة، وأضف أنني أبذل جهداً كبيراً لإنقاذ طفله».

وصلنا إلى الجناح. أدخلتُ السيد فنسان ووجدنا أنفسنا وحدنا، كلينا، في الحديقة الصغيرة التي بسطت فوقها الأشجارُ مَظلّةَ أوراقها الخريفية.

وأخيراً وجدتُ نفسي وجهاً لوجه مع هذا الرجل! نظرتُ إليه، كان شاحباً جداً، وفي وجهه الأبيض المنتفخ، بدَت عيناه مثل حفرتين سوداوين لامعتين.

ظللنا هكذا لبضعِ لحظات، يقف أحدنا أمام الآخر كعدوّين يتفحصان بعضهما بعضاً قبل القتال. كنت فريسةً لغضبٍ يجعلني أرتعد، ولكن لا بد أنه أعطى عينيّ بريقاً مفرطاً؛ لأن عينيه بدتا وكأنهما تتفاديان عينيّ.

فجأة مددتُ ذراعي نحوه، ولمستُ كتفه قائلاً: «سيد فنسان دي بوساي دي تيفينين، أنت قاتل!».

لم يرد عليّ؛ لكن هذه المرة نظرَ إليّ بدوره بشكلٍ كاملٍ.

تابعتُ مستهزئاً: «أوه! لا تحاول أن تبهرني. أنا لست طفلاً وأنت لن تقتلني!».

رفعَ رأسه متحدّياً، وقال: «ماذا تريد مني؟ أنا لا أعرفك...».

أجبته: «لكنني أعرفك يا سيد فنسان! هل تتذكر أمّاً مسكينة (ذكرتُ له الشارع والتاريخ) جاءت منذ عشر سنوات لتبحث عن طبيبٍ لطفلةٍ صغيرةٍ كانت تحتضر؟ هل تتذكر أن ذلك الطبيب قابلك في الغرفة الأولى... وهذا...». وتابعتُ مشدداً على كل كلمة بوضوحٍ وبطءٍ: «قبل دقيقةٍ واحدةٍ، عندما سمعَت الفتاة التعيسة صوت خطواتك، بذلَت جهداً أخيراً للذهاب إليكَ وسقطَت ميتةً بين ذراعي...».

- أوه! لقد كنت أنت!

- نعم، كنت أنا أيضاً الذي رأى هذه الظاهرة الغريبة: التحوّل شبه الفوري لرجلٍ قويٍّ، ببشرةٍ نضرةٍ، بمظهرٍ قويٍّ نسبياً، إلى رجلٍ عجوزٍ مكسورٍ، شاحبٍ، مسحوقٍ.

- أكمل...

- هل تتذكر أنكَ في ذلك المساء حاولت حثّ امرأةٍ طيبةٍ، وهي بوّابة المنزل الذي عشت فيه، لتعهد إليكَ بطفلها؟

- لقد رفضتْ، هذا صحيح...

- حدث ذلك قبل عشر سنوات.. وأجدك هنا على قيد الحياة، أنتَ الذي يترصدك الموت ويهددك.. ما زلت حيّاً.. بينما هناك في الأعلى طفلٌ يحتضر، بلا إصابةٍ داخليةٍ أو مرضٍ يمكن تفسيره علمياً... هل فهمتَ الآن يا سيد فنسان لماذا منعتك من دخول هذا المنزل الذي أتيته لتسرق من شفاه المحتضر آخر أنفاس الحياة التي تعتمد عليها حياتك؟

قال السيد فنسان مشيراً إلى باب الجناح: «لندخل!».

تحدثَ ببساطةٍ تامةٍ من دون أيّ إزعاجٍ. أطعته، فوجدنا أنفسنا في مكتبٍ اختفت جدرانه تحت أرفف الكتب.

أشارَ إليّ بمقعدٍ، وجلس بدوره ثم قال: «ماذا تفترض؟».

استعدتُ هدوئي، وأدركتُ أنني لن أحصل على شيءٍ من هذا الرجل بالترهيب. لذلك واصلت برباطة جأشٍ أكثر: «لا أفترض... أنا أعلم...».

سأل باندهاشٍ: «ماذا؟!».

استأنفت: «كرّستَ نفسك لممارسات التأثير المغناطيسي منذ شبابك، ولمدة تقارب قرناً من الزمان. ما هي وسائل عملك - أنا لا أعرف. يكتشف العلم الحالي قوانين التنويم المغناطيسي والإيحاء، ولكنه لم يحقق بعد أيّاً من النتائج التي تبحث عنها والتي توصلت إليها. أنا آخذ بكلماتك الخاصة. إن علمَكَ إجراميٌّ؛ "يضاعف التفاوت الرهيب الذي، في الصراع من أجل الحياة، يصنع المنتصرين والمهزومين". أبدأ من اعترافك، وأقبَله وأقول لكَ إنك قاتل! تجرّأْ على إخباري بأنني لستُ على طريق الحقيقة...».

أسقط السيد فنسان رأسه في يده، وبدا أنه يفكر للحظاتٍ قليلةٍ، ثم انتصب وقال: «لماذا لم أقابلك سابقاً؟».

سألته: «هل ستندم بأيّ حالٍ من الأحوال على عدم تعليمي علمك البغيض؟».

ردَّ بجديةٍ: «لا يوجد علمٌ بغيضٌ! يمكن للمشرط الموجود في يد الجراح أن يكون أداة قتل. التنويم المغناطيسي والإيحاء اللذان تحدثني عنهما يمكن أن يكونا أدوات للجريمة...».

- علمك إجرامي فقط...

- لا تقل ذلك. بينه وبين استخدامي له هناك كل المسافة التي تفصل بين الخير والشر، وبين العلاج والسُمّ...

- إذاً أنت تعترف!

- أعترف. كما أنني أشمئزُ من نفسي بدرجةٍ أقل بسبب الجرائم المرتكبة بقدرِ ما أشمئز بسبب الجبن الذي دفعني لارتكابها...

- الجبن الذي جعلك تهاجم الأطفال!

- لا، ليس هذا هو. الجبن من عدم الرغبة في الموت.

- أفصح، لأنه يبدو لي أنني جُرِفتُ إلى كابوسٍ ما.

- نعم أريد أن أتحدث. لكن، أنا فقط أطلب منك قَسَماً..

- أيُّ قَسَمٍ؟

- أنت رجل عِلمٍ. سأكشف لك السرَّ الأعظم، لكنك ستلتزم بالتزامٍ رسميٍّ بعدم استخدامه أبداً...

- هل أحتاج أن أُقسم بألا أكون مجرماً؟

- وألا تكشفه لأحدٍ أبداً...

- أُقسم لكَ.

- حسناً، استمع إليّ. هناك ثلاث فترات متميّزة في الإنسان: فترة التألّق؛ أي الطفولة حتى أقصى حدود المراهقة، والثانية: الاستهلاك التي تستمر حتى نهاية الشباب، ثم الثالثة: الانحسار؛ وهي الشيخوخة وتنتهي بالموت.

من الكائن الحي، وخاصة من الإنسان الذي هو حتى الآن التعبير الأكمل عن الحياة، ينضح فائض الحيوية خلال الفترة الأولى؛ يمتصُّ الطفل من السوائل الحيويّة أكثر مما يستهلك، ويشعُّ كيانه كله بقوةٍ زائدةٍ. وفي الفترة الثانية يستهلك الكائن بقدرِ ما يمتص؛ إنه ميزان الأقوياء. وفي الشيخوخة ينكسر هذا التوازن؛ فالارتشاف أقل من الاستهلاك، والتصريف الحيويّ أكبر من الاكتساب، وبالتالي الضعف، ومن ثم الموت.

الآن، في ظلِّ الوضع الحالي للعلم، يبدو الأمر مستحيلاً بالنسبة إليك، أليس كذلك؟ أن رجلاً - رجلاً عجوزاً، يمكنه أن يخرق قوانين الطبيعة هذه، عن طريق ممارساتٍ خاصةٍ، يسرق من الطفل، على سبيل المثال، ذلك الفوحان الحيوي الزائد، بل وحتى عن طريق نوعٍ من التنشيط الخلوي، يمكنه أن يجذب إليه كل السائل، وهو الجزء الخارجي الذي

يكون جزءاً منه فقط، ويجعله تحت تصرفه المباشر. لكن هنا تكمن الحقيقة. نعم، أنا مجرم! نعم، أنا قاتل! لأنني كنت منذ أربعين عاماً مثل إيزون[8] جديد، أجدد شبابي الدائم. نعم، قتلتُ أطفالاً، ولكن ليس كما قد يعتقده الجهلة أو كما اخترعه بجنونٍ جان هنري كوهاوزن في كتابه: "هيرميبوس رديفيفوس" بامتصاص الهواء الذي يتنفسه الطفل، أو حتى بطريقة فودوكلاكس الأسطورية بامتصاص دمهم... لا، وإنما بسحبِ السّائل الحيويّ الذي يتسرّب كفائضٍ من جسدهم بأكمله إليّ...

آه! لو امتلكتُ الشجاعة وتوقفتُ هناك! لكني أعترف لك أنه لا يوجد سَكَرٌ أعمق وأكثر جاذبية وأكثر سعادة بجنونٍ من ذلك! عندما يخترق هذا السّائل الدافئ المنشّط الأطراف المبردة؛ حين يحدث التشرّب، يخترق المسام، ويتسلل إلى جميع الأعضاء، إنها متعةٌ لا تصدق، كاملةٌ، مطلقةٌ... إنه شعورٌ بالبعث، كما تشعر الجثة بالبعث من جديد!

كنت أصرخ دائماً في نفسي: "توقف، توقف فقط!" ويستمر كياني كله في شربِ هذا الفوحان... وكنت أقتل! وأقتل! أحتفظ فقط، مع كل الندم، بعطشٍ لا يُروى!

---

[8] إيزون: أحد أبطال الأساطير اليونانية، والد جيسون، اشتهر بكونه رمزاً لتجدد الشباب. (المترجم).

من خلال الأصابع، من خلال النظر - أوه! من خلال النظر بشكلٍ خاص - يُمارس هذا الجذب مما يمنح الضحية شعوراً بالتخلي عن الذات، ليس مؤلماً، ولكنه مُسكرٌ بشكلٍ لذيذٍ.

كان العجوز البائس يتحدث... ويتحدث... وفي صوته، وفي عينيه، تشنجٌ... ولم أقاطعه، ربما من الرّعب... لا أعرف!

أما هو، فقد شعرَ بأن عاره الفظيع والسّام قد سيطر عليّ، أخبرني بكل شيءٍ: كيفية تنفيذ الحركات باليدين، ولأيِّ تجاهٍ يجب أن يوجّه النظر؛ استمعتُ إليه، ودفنتُ في أعماق نفسي تلك التعاليم البشعة التي أسكرتني كما السائل السّام!

صاح أخيراً: « والآن بعد أن قلتُ كل شيء، يجب أن أموت... خذني إلى الطفل!».

صرختُ: «عجوزٌ فظيعٌ! أتريد حقاً أن أصبح شريكك في الجريمة؟!».

اقتربَ من أذني، وبدا صوته كشرابٍ رقيقٍ يتدفق في داخلي... وقال: «أنت الذي أعلّمه، ألا تفهم أن علمنا يمنحنا أيضاً قوة الإرجاع؟ أنا أعيش فقط على ما سرقته من ذلك الطفل، وأخبرتك أنني أريد أن أموت».

فأطعتُه؛ لم أكن قادراً على عدم طاعته.

صعدنا الدرج معاً، دخلنا المنزل معاً، وصلنا معاً إلى غرفة المعيشة حيث ما زال الأطباء الأربعة يتحدثون بصوتٍ خافتٍ، ومن هناك إلى غرفة النوم حيث يحتضر الطفل...

الطفل الذي تعرّفَ على خطا السيد فنسان، رفع نفسه وعيناه تتابعانه وذراعاه تمتدان نحوه..

كانت اللحظة الأعظم، اللحظة الفظيعة التي تذكرتها، والتي سبقت موت الفتاة الصغيرة، كما تسبق الضربة الألم.

دخلَ الأطباء خلفنا؛ وقفَ الأب غير فاهمٍ، ولكنه مثل اليائسين، يحتفظ بأملٍ في حدوث المعجزة.

رأيتُ جسد الطفل يتأرجح، يتردد بين حركتين؛ الاندفاع والانحسار. نظرَ إليه السيد فنسان بعينيه المتوسعتين، وتقدم ببطءٍ، ويداه خاملتان على ما يبدو، لكنهما نشيطتان... بالنسبة إليّ، بالنسبة إليّ أنا الذي أعرف كل شيء.

استلقى الطفل مرةً أخرى برفقٍ. واستمر السيد فنسان بالاقتراب منه. وأخيراً، وضع يده على جبين المريض الصغير. وفجأة رأيتُ – أوه! لا أستطيع أن أشك في ذلك – دفقةً من اللون الورديّ انتشرت على وجهه، وأضاءت شفتيه، في الوقت نفسه تلألأ وهجٌ في أعماق

عينيه الباهتتين. وفهمتُ جيداً، أنا... أنا فقط... أن هذا الرجل يعيد إلى الطفل الحياة التي سرقها منه..

قال الرجل العجوز بصوتٍ لم يكن أكثر من همسٍ: «لقد أُنقذَ طفلك!»، ثم توجّه إلى الأطباء واستقام قليلاً، ثم قال: «أيها السادة، ستشهدون أن الدكتور دي بوساي دي تيفينين، آخر تلميذ لميسمير، أحيا ميتاً!».

قال هذا وهو يترنح وكاد يسقط على الأرض لولا أني أسندته، فهمسَ إليّ: «خذني إلى هناك، إلى الجناح!». رفعته بين ذراعيّ. لم يعد لهذا الجسد أيّ وزنٍ، ووضعته على سريره.

هناك، مطيعاً لرغبته الأخيرة، بقيتُ بجانبه، وتحدث إليّ لفترةٍ طويلةٍ جداً بصوتٍ يضعف أكثر من أيّ وقتٍ مضى، وأسرَّ إليّ بأمورٍ لم تسمعها أذنٌ بشريةٌ قط، جعلتني أرتجف حقاً.

هذه الأمور، أنا أعرفها ولا أستطيع أن أنساها؛ وأخشى أن تأتي الشيخوخة التي قد تجعلني مجرماً!

*****

عاش الطفل.

توفي السيد فنسان في اليوم التالي.

قابلني أحد زملائي بعد بضعة أيام وقال لي: «هل رأيت هذا الدجال العجوز، كيف عرف أن يكسب الشرف برَدِّ فعلٍ طبيعيٍّ؟!».

وأنا، أعرف... وأخشى من علمي!

مدين حرامي

مترجم سوري

مترجم يحمل ماجستير في اللسانيات التطبيقية – تعليم اللغة الفرنسية للأجانب من جامعة رين الثانية – فرنسا (2005 – 2007)، ودبلوم الدراسات الأدبية (2002 – 2004)، وإجازة في الأدب الفرنسي (1998 – 2002) من جامعة حلب – سوريا.

منذ عام 2009، يشغل منصب مدرّس في ماجستير التأهيل والتخصص FLE بالمعهد العالي للغات في جامعة حلب .كما عمل مترجمًا باللغتين العربية والفرنسية لدى منصة جدل للترجمة – الإمارات (2022 – 2025)، ومترجمًا للأفلام والمسلسلات في تنوير للترجمة – سوريا (2020 – 2022)، تولّي قسم اللغة الفرنسية في دار كينا للترجمة والنشر – الإمارات عام 2025.

صدر له

من الفرنسية إلى العربية

توماس سانكارا (2025) تحرر المرأة والنضال من أجل تحرير أفريقيا (دار كينا: الإمارات).
سيمون فايل (2025) انتظار الله (دار أما بعد: السعودية).
توماس سانكارا (2025) نحن ورثة ثورات العالم (دار كينا: الإمارات).
بينجامين رابييه (2024) قصص فلكلورية فكاهية (دار لازورد: العراق).
غودول (2023) صاحبة المكتبة (دار دريم بوك: الكويت).

من العربية إلى الفرنسية

أسامة المسلم (2022) بساتين عربستان (دار أدب بوك: السعودية).
أسامة المسلم (2024) خوف (دار أدب بوك: السعودية).

إصدارات أخرى

لخطواتك رائحة الكينا (2025) ديوان شعري مشترك (دار كينا: الإمارات).

NOVEL

في روايته الفريدة «إكسير الحياة»، يأخذنا ليرمينا إلى تخوم الرعب النفسي، حيث يختلط الغموض بالخيال العلمي في سردٍ يخطف الأنفاس. تبدأ الحكاية حين يُستدعى طبيب إلى منزل سيدة مذعورة لرؤية طفلة تحتضر فجأة، ليس بفعل جرح أو نزيف، بل بفقدان طاقتها الحيوية نفسها. تموت الطفلة أمام أعين الطبيب وأمها، بينما يفرّ من المكان رجل غامض في الخامسة والسبعين يُدعى السيد فنسان، بملامح قوية لا توحي بعمره. الغرابة تبلغ ذروتها حين يبدأ هذا الرجل في الشيخوخة بسرعة مروّعة، حتى يبدو بعد ساعات كأنه بلغ المئة.

يمر عشرون عامًا قبل أن يلتقي الطبيب مرة أخرى بالسيد فنسان، الذي يعيش الآن في ملجأ للأمراض العقلية، مدعيًا أنه في الخامسة عشرة بعد المئة، مع مظهر لا يشي إطلاقًا بضعف الشيخوخة. هناك يكشف سرّه المروّع: فهو مصاص دماء نفسي، لا يقتات على الدماء، بل على جوهر الحياة ذاته، ممتصًا الطاقة الحيوية للأطفال ليطيل عمره بلا نهاية.

المترجم

JULES LERMINA

L'ÉLIXIR DE VIE

Translate it from français by Medyan Harami

9 781326 386238

Jidar
Culture & Publishing